«آمنّا» الخالى من كلّ التّأكيدات الّتى اعتاد عليها المنافقون الّذين تنقصهم الحرارة الإيمانية الآن لذا كان تعبيرهم كإيمانهم المزعوم .

وما أسرع تلوّن المنافقين وتقلّب ولائهم ، وما أقرب تحوّلهم من النّقيض إلى النّقيض ، من الإيمان إلى الكفر ، ولكنّها حقيقة النّفاق الّتى يجرى على اللّسان معها لفظ الإيمان ويرسخ فى القلب الكفر والعياذ بالله . إنّ المنافقين يقولون بألسنتهم للمؤمنين كلّ لحظةٍ «آمنّا» وسرعان ما يبادر هؤلاء المنافقون إلى رؤسائهم فى الكفر معلنين الكفر مقابل زعمهم للمؤمنين الإيمان ، مضيفين إلى ذلك اعترافهم أنّهم بقولهم للمؤمنين « آمنّا » إنّما يهزأون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم . إنّ المنافقين يفعلون كلّ ذلك من أجل حطام الدّنيا الرّاحل ، ومتاعها القليل الزّائل .

لننظر إلى تذبذب المنافقين ، وإحساسهم بالرّيبة الّتى يأتون بإعلان الإيمان ومبادرتهم إلى نفى الإيمان فوراً وإعلان الكفر حالاً وإعطاء الدّليل الأكيد على الكفر والعياذ بالله .

إنّهم حينما يلقون المؤمنين مصادفةً يقولون « آمنّا » وقد عرفنا أنّ الباعث لهم على ذلك هو الباعث للمريب الّذى يكاد يقول خذونى . أمّا بشأن لقائهم شياطينهم من الإنس فإنّ المنافقين هم الّذين يسرعون نحوهم ويبادرون إليهم . إنّ هذه المعانى نفهمها من العدول عن الباء إلى إلى بشأن القول ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ إنّ جملة خلا تشير إلى انفراد هؤلاء المنافقين برؤسائهم شياطين الإنس ، وقد يكون هؤلاء من المنافقين ، وهذا هو الغالب والرّاجح ، وقد يكون هؤلاء من الشّياطين إخوانهم من اليهود والكفّار ، لاشتراك الجميع فى صفة الكفر وبغض الإسلام . وهذه الخلوة نفهمها من جملة « خلوا » الّتى تتعدّى بحرف الجرّ الباء فى العادة . وفى الآية الكريمة تمّ العدول عن حرف الجرّ الباء ، إلى حرف الجرّ إلى ، وبهذا اكتسب الفعل معنًى جديداً آخر جاءه هذه المرّة من تعديته إلى حرف الجرّ إلى . وبهذا يكون للقول ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ معنيان اثنان كما يقول العلماء . المعنى الأول هو الانفراد بالشّياطين والخلوة بهم . والمعنى الثّانى تضمين جملة « خلوا » معنى جملة ذهبوا وانصرفوا . وإنما يكون الذّهاب والانصراف بدافعٍ ذاتى . وهكذا يتبيّن الفرق بين لقاء المنافقين كلاً من المؤمنين والكافرين . إنّ لقاءهم للمؤمنين

مصادفة ، لأنّهم غير راغبين فى الالتقاء بهم ولكنّهم مكرهون على ذلك . وهو كرهٌ يتجرّع المنافقون مرارته مقابل زعمهم الإيمان الّذى تسلم به دماؤهم وأموالهم وأعراضهم ، بل ربّما شاركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغنم(١) .

أمّا لقاء المنافقين شياطينهم فإنّ وراءه باعثًا داخليًّا ذاتيًا هو طمأنة سادتهم فى الكفر ورؤسائهم إلى كونهم متمسّكين بالكفر مصرّين عليه رغم إعلانهم بألسنتهم الإيمان .

وانظر إلى التّعبير الموجز المعبّر الّذى يجئ على ألسنة المنافقين خطاباً لشياطينهم الّذين خلوا بهم « إنّا معكم » إنّه تعبيرٌ يتمشّى مع الخلوة ومع الانفراد بالشّياطين ويقفز إلى منتهى ما يتمنّى الشّياطين بأن يكون المنافقون معهم « على دينكم وظهراؤكم على من خالفكم فيه وأولياؤكم دون أصحاب محمّد ﷺ »(٢) ولا يكون المنافقون مع رؤساء الكفر إلا بكفرهم ، ولا يجتمع الكفر والإيمان ، وبذلك يكون ما قاله المنافقون للمؤمنين « آمنّا » قولاً لا معنى تحته ولا فائدة وراءه وذلك هو عصب النّفاق وصلبه . وذلك منتهى ما يحرص عليه الشّياطين .

ولا يكتفى المنافقون المذبذبون المريبون بالتّعبير الّذى يطمئنّ به رؤساؤهم فى الكفر ، إنّما يضيفون إلى ذلك ما قد لا يتوقّعه سادتهم فى الكفر الّذين يحرصون على تمسّك المنافقين بالكفر ورفض الإيمان . أمّا هذه الإضافة على ألسنة المنافقين الّتى قد لا يتوقعها رؤساء الكفر دليلاً على إمعان المنافقين فى الضّلال ، والمرض الّذى زادهم الله تعالى إضافةً إلى المرض المتمكّن من قلوبهم ، وانهزامهم المعنوى الّذى ليس عليه مِنْ مزيد ، وغلبة الإسلام وقهره لهم الشّديد ، والحقد المتمكّن من قلوبهم على الإسلام الآكل لها والبغض الأكيد ، أمّا هذه الإضافة فهى اعترافهم فى أقوى صور التّعبير بأنّهم مستهزئون بالمؤمنين حينما يقولون آمنّا ساخرون « إنما نحن مستهزئون بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه »(٣) .

والحقيقة أنّا نودّ أن نقارن بين تعبير المنافقين المعتاد فى خطابهم للمؤمنين « آمنّا » وبين تعبير المنافقين المؤكّد فى خطابهم لشياطينهم كلّ مرةٍ من المرّتين ممّا هو دليلٌ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٥١ (٢) تفسير الطبرى ١/١٠٠

(٣) تفسير الطبرى ١/١٠٠

على أنّ قلوب المنافقين قد أشربت الكفر والعياذ بالله وذلك فى القول على لسانهم « إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون » .

إنّ القول « آمنّا » جملةٌ فعليّة مرتبطةٌ بالزّمن الماضى . فهذا الإيمان قد مضى وانقضى . وقد عرفنا أنّه إيمانٌ مزعومٌ لم يوجد أصلاً . أمّا الجملتان التّاليتان فهما جملتان اسميّتان . ومعروفٌ أنّ الجملة الاسميّة لا ترتبط بالزّمن أصلاً فهى تدلّ على استمرار الحدث وبقائه . وإذا كنّا بصدد توكيدٍ واحد فى القول « إنّا معكم » هو « إنّ » الّتى تفيد التّوكيد ، فإنّا فى القول « إنّما نحن مستهزئون » بصدد « إنّ » ذاتها ، وبصدد ضمير جماعة المتكلّمين المنفصل « نحن » وله دوره فى التّوكيد فليس التّعبير مثلاً « إنّا مستهزئون » أو « نحن مستهزئون » ولكن « إنما نحن مستهزئون » . ثمّ إنّنا بصدد اسم الفاعل مستهزئون الّذى يدلّ على الثّبوت وأنّ الاستهزاء وصفٌ ثابت لهمٌ . يقول أبو حيّان[1] « حين لقوا شياطينهم أو خلوا إليهم قالوا إنّا معكم . فأخبروا أنهم موافقوهم . وأخرجوا الإخبار فى جملة اسميّة مؤكدة بإنّ ليدلّوا بذلك على ثباتهم فى دينهم .... وأبرزوا هذا الإخبار [بالاستهزاء] فى جملة اسميّة مؤكّدةٍ بإنّما مخبرٍ عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الّذى يدلّ على الثّبوت وأنّ الاستهزاء وصفٌ ثابتٌ لهم » . قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنُوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ .

الآيــة رقــم (١٥)

قال تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ويَمُدُّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

إنّ ربّ العزّة هو الّذى ينتصر للمؤمنين المتّقين من المنافقين المستهزئين ، لذا تبدأ الآية الكريمة بلفظ الجلالة « الله » .

فما معنى قوله تعالى : الله يستهزئ بهم ؟ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم

---

(١) البحر المحيط ٦٩/١

ويجازيهم على استهزائهم . فسمَّى العقوبة باسم الذّنب . هذا قول الجمهور من العلماء[١]

وما معنى يمدّهم ؟ المدّ التّطويل . مّد الشّيء طوّله وبسطه . ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّل . وأصل المدّ الزّيادة . وكلّ شيءٍ دخل فى شيءٍ فكثّره فقد مدّه . قاله اللّحيانىّ . وأمدّ بمعنى مدّ . مدّ الجيش وأمدّه زاده وألحق به ما يقوّيه من جنسه . وقال بعض أهل العلم : مدّ زاد من الجنس . وأمدّ زاد من غير الجنس . وقال يونس : مدّ فى الخير وأمدّ فى الشّرّ . انتهى قوله . ويقال : مدّ النّهر وأمدّه نهرٌ آخر . ومادّة الشّيء ما يمدّه ، الهاء فيه للمبالغة . وقال ابن قتيبة : مددت الدّواة وأمددتها بمعنى . ويقال : مددنا القوم صرنا لهم أنصارا . وأمددناهم بغيرنا . وقال اللّحيانىّ : أمدّ الأمير جنده بالخيل . وفى التّنزيل : وأمددناكم بأموالٍ وبنين[٢] وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ ممّا يشتهون[٣] قوله تعالى : ويمدّهم أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويملى لهم . إنّما نملى لهم ليزدادوا إثما[٤] .

وما معنى الطّغيان ؟ قال أبو جعفر : والطّغيان الفعلان من قولك طغى فلان يطغى طغياناً إذا تجاوز فى الأمر حدّه فبغى . ومنه قول الله : ﴿ كلاّ إنّ الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ . أى يتجاوز حدّه[٥] ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّا لمّا طغى الماء ﴾ ، أى ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الّذى قدّرته الخزّان . وقوله فى فرعون : ﴿ إنه طغى ﴾ ، أى أسرف فى الدّعوى حيث قال : أنا ربّكم الأعلى[٦] .

وما معنى يعمهون ؟ العمه مثل العمى إلاّ أنّ العمى عامٌّ فى البصر والرّأى . والعمه فى الرّأى خاصّة ، وهو التّحيّر والتّردّد لا يدرى أين يتوجّه[٧] وحكى أهل اللّغة : عمه (بفتح الميم وكسرها) الرّجل يعمه عموهًا وعممًا فهو عَمِهٌ وعامهٌ إذا حار . ويقال :

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٨٠

(٢) البحر المحيط ٦٣/١ وانظر تفسير القرطبى ص ١٨١ والكشّاف ١٤٤/١ وابن كثير ٥٢/١

(٣) سورة الطّور ٢٢

(٤) تفسير القرطبىّ ص ١٨١ والجزئيّة الكريمة من الآية رقم ١٧٨ من سورة آل عمران .

(٥) تفسير الطّبرى ١٠٥/١ (٦) تفسير القرطبىّ ص ١٨٢

(٧) الكشّاف ١٤٦ وانظر تفسير ابن كثير ٥٢/١

رجلٌ عامه وعمه . حائر متردّد وجمعه عُمْه . وذهبت إبِلُهُ العَمْهَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعمى فى العين والعمه فى القلب[١] ويقول أبو حيان[٢]« العمه : التّردّد والتّحيّر وهو شبيهٌ بالعمى ، إلا أن العمى توصف به العين الّتى ذهب نورها ، والرأى الّذى غاب عنه الصّواب يقال : عمه يعمه عمهاً وعمهاناً فهو عمه وعامه . ويقال : برِّيَّة عمهاء إذا لم يكن بها علمٌ يستدلّ به . وقال ابن قتيبة : العمه أن يركب رأسه ولا يبصر ما يأتى . وقيل : العمه العمى عن الرشد قال . أبو جعفر : والعمه نفسه الضّلال[٣] قال تعالى[٤] : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور » .

معروفٌ أنّ القرآن الكريم إنّما نزل بلسانٍ عربّى مبين ، ومعروفٌ أنّ القرآن الكريم لم يلو لحظةً من اللّحظات للّغة العربيّة عنقاً و لم يرغمها على أن تسير فى غير الخطّ الّذى تسير فيه ، ومن هنا كان نظم القرآن الكريم المعجز على غرار تحبير العرب أقوالهم شعراً ونثراً ، ومن هنا تبيّنّا الكثير من أوجه التّشابه والتّماثل بين التّعبير القرآنىّ وبين طرائق العرب فى تعبيرها . ومن المواطن الّتى تبيّن فيها علماء العربيّة أنّ نظم الكلام فى آى الذّكر الحكيم يسير على غرار نظم العرب كلامها ، هذا النّوع من التّعبير الّذى يصادفنا فى الآية الكريمة والّذى سمّاه العلماء أحياناً بالازدواج[٥] وذلك فى مجازاة ربّ العزّة المنافقين فى صدر الآية الكريمة على استهزائهم بالمؤمنين فى عجز الآية الكريمة السّابقة . قال تعالى : ﴿ إنّما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ﴾ .

لقد عرفنا معنى استهزاء المنافقين بالمؤمنين فى أثناء دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة السّابقة ، ومن باب الازدواج أو المشاكلة ومراعاة النّظير جاء فى الآية الكريمة فى حقّ الذّات العليّة : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ ومعروفٌ أنّ « الدّواعى إلى الاستهزاء خوف الأذى واستجلاب النّفع والهزل واللّعب . والله تعالى منزّه عن ذلك . فلا يصحّ إضافة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٨٢ (٢) البحر المحيط ٦٣/١

(٣) تفسير الطّبرى ١٠٥/١ (٤) سورة الحج ٤٦

(٥) يقول الرّمّانى فى النُّكت فى إعجاز القرآن : « باب التجانس . تجانس البلاغة هو بيانٌ بأنواع الكلام الّذى يجمعه أصلٌ واحدٌ فى اللّغة . والتّجانس على وجهين مزاوجة ومناسبة » ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩١ وانظر التّجانس فى الملحق رقم ٨ ص ١٧٦ وانظر إعجاز القرآن للباقلاّنى ص ٢٧١ و ٢٧٢

الاستهزاء الّذى هذه دواعيه إلى الله تعالى »[١] ويقول القرطبىّ[٢] : « وليس منه سبحانه مكرٌ ولا هزء ولا كيد . إنّما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم » .

لقد تبيّن العلماء أنّ الآية الكريمة تسير وفق طرائق العرب فى تعبيرهم . يقول القرطبىّ مثلاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾[٣] : « أى ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم . فسمّى العقوبة باسم الذّنب . هذا قول الجمهور من العلماء . والعرب تستعمل ذلك كثيراً فى كلامهم . من ذلك قول عمرو بن كلثوم[٤] » .

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمّى انتصاره جهلاً . والجهل لا يفتخر به ذو عقل . وإنّما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخفَّ على اللّسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظٍ جواباً له وجزاءً ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له فى معناه . وعلى ذلك جاء القرآن والسُّنّة ، وقال الله عزّ وجلّ : وجزاء سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها . وقال : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . والجزاء لا يكون سيّئة ، والقصاص لا يكون اعتداءً لأنّه حقٌّ وجب . ومثله : ومكروا ومكر الله . و : إنّهم يكيدون كيداً وأكيد كيدا . و : إنّما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ..... وكذلك : يخادعون الله وهو خادعهم . فيسخرون منهم سخر الله منهم [ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتُهُمْ خاويةً بما ظلموا . إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يعلمون] وقال رسول الله ﷺ : إنّ الله لا يملّ حتّى تملّوا ولا يسأم حتّى تسأموا .... وقال قوم : إنّ الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هى فى تأمّل البشر هزءٌ وخِدْعٌ ومكر » .

---

(١) البحر المحيط ١/٧٠ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٨٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٨٠ وما بين معقوفين زيادتان اقتضاهما السّياق أولاهما جزء من الآية رقم ٣٠ من سورة الأنفال والآخرة والآيات ٥٠ ــ ٥٢ من سورة النّمل .

(٤) انظر هنا إعجاز القرآن للباقلاّنى ص ٢٧١ وثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٢ .

وقد تبيّنا أنّ العلماء قد فطنوا إلى أنّ المزاوجة إنّما تجئ حينما يراد المجازاة . ونحن نتبيّن هذه الحقيقة فى بيت عمرو بن كلثوم ، وفى الآيات الكريمات ، وفى الحديث النّبوىّ الشّريف . كما نتبيّن أنّ المعنى الأوّل على حقيقته ، أمّا الجزاء فغير ذلك ، بما فى ذلك الحديث النّبوى الشّريف ، فالملل والسّأم من البشر على حقيقته ، وليس كذلك الجزاء ، وقد علّق القرطبىّ على الحديث بالقول[١] : « قيل : حتّى بمعنى الواو أى وتملّوا . وقيل : المعنى وأنتم تملّون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتّى تقطعوا العمل » كما نتبيّن فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين معنى الجزاء فى بيت عمرو بن كلثوم الّذى يتجاوز العدل إلى الظلم ، وبين الجزاء فى الآيات الكريمات الّذى سِمَتُهُ العدل دائما . يقول الرّمّانىّ مثلا[٢] : « فالمزاوجة تقع فى الجزاء كقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ . أى جازوه بما يستحقّ على طريق العدل ، إلاّ أنّه استعير للثّانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدّلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان . ومن ذلك : مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، أى يجازيهم على استهزائهم . ومنه : ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . أى جازاهم على مكرهم . فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدّلالة على أنّ وبال المكر راجعٌ عليهم ومختصٌّ بهم . ومنه : يخادعون الله وهو خادعهم . أى مجازيهم على خديعتهم ، ووبال الخديعة راجعٌ عليهم . والعرب تقول : الجزاء بالجزاء . والأوّل ليس بجزاء وإنّما هو على مزاوجة الكلام . قال عمرو بنُ كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوق جهل الجاهلينا

فهذا حسنٌ فى البلاغة ، ولكنّه دون بلاغة القرآن لأنّه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن ، وإنّما فيه الإيذان براجع الوبال فقط ، والاستعارة للثّانى أولى من الاستعارة للأوّل ، لأنّ الثّانى يُحْتَذَى فيه على مثال الأوّل فى الاستحقاق ، فالأول بمنزلة الأصل والثّانى بمنزلة الفرع الّذى يُحْتَذَى فيه على الأصل ، فلذلك نقصت منزلة قولهم :

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٨٠ .

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩١

الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام فى القرآن » .

أما وقد عرفنا أنّ القول ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ جزاءٌ من الله تعالى للمنافقين وعقابٌ لهم على استخفافهم بالمؤمنين ، وبهذا يكون قد « أطلق على الشّىء ما أشبهه صورةً لا معنى »[1] فما معنى استهزاء الله تعالى بالمنافقين ؟ الملاحظ أنّ عقاب الله تعالى للمنافقين وانتقامه جلّ وعلا منهم فى الآية الكريمة يتكوّنّ من شقّين اثنين ، يبنى ثانيهما على أوّلهما الأوّل ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ والثّانى ﴿ ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . إنّ المنافقين يهزأون بالمؤمنين ويسخرون منهم اعتقاداً من المنافقين بأنّهم هم الرّابحون ، لأنهم يكسبون ما يكسب المؤمنون والكافرون معاً . إنّهم ينالون ما ينال المؤمنون بسبب إعلانهم الإيمان . ويكسبون ما يكسب الكافرون الّذين يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام بسبب إخفائهم الكفر . إنّهم يأمنون الفريقين معًا ، ونسى المنافقون أنّ خسارتهم حقيقةً هى الكبرى لأنّهم خسروا الإيمان وحلاوته واليقين وبرده . وحينما يخسرون الإيمان يربحون الكفر ، ومصير الكافرين معروف . النّار وبئس القرار . وما دام مصير نعيم الدّنيا الزّوال وإن طال ، وما دام مصير المنافقين الأكيد هو النّار وبئس القرار ، إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ويعملوا الصّالحات ، فمعنى هذا أنّهم إنّما استهزءوا فى الحقيقة بأنفسهم وأنّ الهزء إنّما كان بهم وليس بالمؤمنين الّذين أعدّ الله تعالى لهم جنّات النّعيم الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء فى الحديث الصّحيح .

وهؤلاء الّذين لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً إنّما استمرأوا النّفاق وأصرّوا عليه ، تضيف الآية الكريمة إلى استهزاء الله تعالى بهم مدّهم فى طغيانهم يعمهون . وإنّهم بسبب عمى البصيرة الّذى تمكّن منهم يظنّون إمهال الله تعالى لهم إهمالاً . فلا يزدادون بنعم الله تعالى عليهم الّتى لا تحصى ولا تزداد بمرور اللّيالى والأيام إلاّ زيادةً ونماءً لا يزدادون إلاّ طغياناً واستكباراً ، إلى أن يأخذهم الله تعالى وهم الظّالمون أخذ عزيزٍ مقتدر ، ولات ساعة مندم . إنّ هذه المعانى بيّنها بعض آى الذّكر الحكيم . ومن ذلك قوله تعالى

---

(١) البحر المحيط ١/٧٠

فى سورة الأنعام[١] : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون . فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرّعوا ولكن قَسَتْ قلوبُهُمْ وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون . فلمّا نسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيءٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسون . فَقُطِع دابِرُ القومِ الّذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين ﴾ وقوله تعالى فى سورة آل عمران[٢] : ﴿ ولا يحسبّن الّذين كفروا أنّما نُمْلى لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنّما نملى لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذابٌ مهين ﴾ وقوله تعالى فى سورة الأعراف[٣] : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأُمْلِي لهم إنّ كيدى متين ﴾ كما بيّن هذه المعانى مثل هذا الحديث النّبوى الشّـريف : إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيمٌ على معاصيه فإنّما ذلك منه استدراج . ثم نزع بهذه الآية : ﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون . فقُطع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ قال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ . كلّما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة[٤] وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النّعم الدّنيويّة عليهم . فالله سبحانه وتعالى يُظْهر لهم من الإحسان فى الدّنيا خلاف ما يغيب عنهم ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنّون أنّه راضٍ عنهم وهو تعالى قد حَتَمَ عذابهم . فهذا على تأمّل البشر كأنّه استهزاءٌ ومكر وخداع[٥] وجاء فى تفسير الطّبرى[٦] : « وقال آخرون : قوله : إنّما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم . وقوله : يخادعون الله وهو خادعهم . وقوله : فيسخرون منهم سخر الله منهم . ونسوا الله فنسيهم وما أشبه ذلك ، إخبارٌ من الله أنّه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج خبره عن جزائه إيّاهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الّذى عليه استحقّوا العقاب فى اللّفظ ، وإن اختلف المعنيان ، كما قال جلّ ثناؤه : وجزاء سيّئةٍ سيّئةٌ

---

(١) الآيات ٤٢ ــ ٤٥
(٢) الآية ١٧٨
(٣) الآية ١٨٢ ، ١٨٣
(٤) تفسير القرطبىّ ص ١٨١
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٨١
(٦) ١٠٣/١

مثلها ، ومعلوم أن الأولى من صاحبها سيّئة إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصيـة ، وأنّ الأخرى عدل ، لأنّها من الله جزاءٌ للعاصى على المعصية . فهما وإن اتّفق لفظاهما مختلفا المعنى . وكذلك قوله : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه . فالعدوان الأوّل ظلم والثّانى جزاء لا ظلم بل هو عدل لأنّه عقوبةٌ للظّالم على ظلمه وإن وافق لفظه لفظ الأول . وإلى هذا المعنى وجّهوا كلّ ما فى القرآن من نظائر ذلك ممّا هو خبر عن مكر الله جلّ وعزّ بقوم وما أشبه ذلك » .

ويلاحظ أنّه جاء على لسان المنافقين صيغة اسم الفاعل « مستهزئون » بينما جاءت صيغة الفعل المضارع « يستهزئ » جزاءً لهم . وقد قال الزّمخشرىّ فى ذلك[١] : « فإن قلت : فهلاّ قيل : الله مستهزئٌ بهم ليكون طبقاً لقوله : إنّما نحن مستهزئون . قلت : لأنّ يستهزئون يفيد حدوث الاستهزاء وتجدّده وقتاً بعد وقت » كما علّل كـلٌّ مـن الزّمخشرىّ[٢] وأبى حيّان إضافة الطّغيان إليهم . يقول أبو حيّان مثلاً[٣] : « وأضاف الطّغيان إليهم لأنّه فعلهم وكسبهم . وكلُّ فعلٍ صدر من العبد صحّت إضافته إليه بالمباشرة وإلى الله بالاختراع » .

ويعمهون جملة فى موضع الحال . نصب على الحال إمّا من الضّمير فى يمدّهم . وإمّا من الضّمير فى طغيانهم لأنّه مصدر مضافٌ للفاعل[٤] ويقول الطّبرى[٥] : « فمعنى قوله جلّ ثناؤه : ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون فى ضلالهم وكفرهم الّذى قد غمرهم دَنَسُه وعلاهم رجسه ، يتردّدون حيارى ضلاّلاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ، لأنّ الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها فأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلا » ويلاحظ أنّ مدّ الله تعالى المنافقين فى طغيانهم يقترن به تعيين المصير السّيّىء الّذى سيئول إليه المنافقون فلا يُرسل المدّ فى الطّغيان إرسالاً بل يقيّد تقييدا . قال تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

---

(١) الكشّاف ١/١٤٤
(٢) الكشّاف ١/١٤٥
(٣) البحر المحيط ١/٧٠
(٤) البحر المحيط ١/٧١
(٥) تفسير الطّبرى ١/١٠٥

الآيــة رقــم (١٦)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

الاشتراء والشّراء بمعنى الاستبدال بالشّيء والاعتياض منه . إلاّ أنّ الاشتراء يستعمل فى الابتياع[١] والبيع . وهو ممّا جاء فيه افتعل بمعنى الفعل المجرّد وهو أحد المعانى الّتى جاء لها افتعل[٢] معنى اشتراء الضّلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر[٣] .

والضّلالة : الحيرة[٤] والجور عن القصد وفقد الاهتداء . يقال : ضلّ منزله وضلّ دريص[٥] نفقه ، فاستعير للذّهاب عن الصّواب فى الدّين[٦] .

وعطف فما ربحت بالفاء يدلّ على تعقّب نفي الرّبح للشّراء وأنّه بنفس ما وقع الشّراء تحقّق عدم الرّبح[٧] .

والرّبح : الفضل على رأس المال[٨] وما يحصل من الزّيادة عليه[٩] والتّجارة : صناعة التّاجر وهو الّذى يبيع ويشترى للرّبح[١٠] ويتصرّف فى المال لطلب النّموّ والزّيادة[١١] .

والمهتدى : اسم فاعل من اهتدى . وافتعل فيه للمطاوعة . هديته فاهتدى نحو سوّيته فاستوى وغممته فاغتمّ . والمطاوعة أحد المعانى الّتى جاءت لها أفعل . ولا تكون افتعل للمطاوعة مبنيّة إلاّ من الفعل المتعدّى[١٢].

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
ص ٨٣ لعام ١٤٢١ هـ

---

(١) ابتاع الشّيء اشتراه
(٢) البحر المحيط ٦٣/١
(٣) الكشّاف ١٤٦/١
(٤) تفسير القرطبى
(٥) الدّرص والدّرص ولد الفأرة والهرّة والأرنب ونحوها .
(٦) الكشّاف ١٤٦/١
(٧) البحر المحيط ٧٢/١
(٨) الكشّاف ١٤٦/١
(٩) انظر البحر المحيط ٦٣/١
(١٠) الكشّاف ١٤٦/١
(١١) البحر المحيط ٦٣/١
(١٢) البحر الميحط ٦٣/١

تكاد هذه الآية الكريمة تصوّر أسوأ الأحوال الّتى انتهى إليها المنافقون فى سلسلة الأحوال السّيئة الّتى تقلّبوا فيها والصّفات القبيحة الّتى اتّصفوا بها . ويتبيّن ذلك بوضوح حينما يستبدل المنافقون الضّلالة بالهدى وحينما يؤثرون الكفر على الإيمان ، ويفضّلون الظّلام على النّور . وتتّضح أسوأ الأحوال الّتى آل إليها المنافقون حينما نتبيّن كلاً من لفظة « الهدى » و « مهتدين » فى الآية الكريمة وقد نأت عنهم صفتا الهدى والاهتداء ، وسبق أن تبيّن بشأن حديث السّورة الكريمة عن القرآن الكريم أنّ القرآن الكريم هدى للمتّقين ، وبشأن المتّقين أنّهم على هدىً من ربّهم . ومعروف أنّ الهداية للطّريقة الّتى هى أقوم سمة من أهمّ سمات الذّكر الحكيم وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيرا ﴾ وحينما يرفض المنافقون الهدى وحينما يصرّون على الضّلالة يكون معنى ذلك أنّهم رفضوا القرآن الكريم وأنكروا كونه كلام ربّ العالمين وجحدو نبوّة محمّد ﷺ الّذى أوحى له الله تعالى الذّكر الحكيم والنّور المبين والصّراط المستقيم .

وقد عبّرت الآية الكريمة عن تلك المعانى فى أسلوب القرآن الكريم المعجز . فلنسر مع حبّات عقد المعانى الواحدة تلو الأخرى .

إن اسم الإشارة إلى جماعة البعداء « أولئك » يشير إلى هؤلاء المنافقين الّذين بلغوا فى البعد عن الصّراط المستقيم شأواً بعيدا وقد ظهر ذلك واضحاً فى حديث الآيات الكريمات عن صفاتهم الذّميمة . وقد انتهى الأمر بهم إلى أسوأ الأحوال باستبدال الضّلالة بالهدى والكفر بالإيمان . فكيف عبّرت الآية الكريمة فى أسلوبها المعجز عن ضلال القوم وحرصهم على هذا الضّلال ؟ لقد استعارت الاشتراء دليلاً على حبّ المنافقين الضّلال وبغضهم الهدى . والمعروف أنّ المرء إنّما يشترى فى العادة الشّىء الّذى يحبّ لأنّه ينتفع به انتفاعاً مباشراً أو لأنّه ينتفع به انتفاعاً غير مباشر كأن يتّخذ ممّا يشترى مادّة لتجارته وتنمية ثروته . ومعروف أنّ الإنسان مفطورٌ على حبّ المال بل على شدّة الحبّ له وقد قال تعالى[2] : ﴿ وإنّه لحبّ الخير لشديد ﴾ إنّ الآية الكريمة كى تعبّر عن مدى إيثار

---

(١) سورة الإسراء ٩ (٢) سورة العاديات ٨

المنافقين الضّلال على الهدى تستعير عمليّة الشّراء الّتى يبذل معها المشترى رأس المال على أمل الرّبح .

أما وقد عرفنا أن المنافقين قد اشتروا الضّلالة ظانّين أنّ الرّبح الحقيقىّ كامنٌ فيها ، فما هو رأس المال الّذى دفعوه ثمناً للضّلالة ؟ إنّ الثّمن الّذى بذلوه هو الهدى والعياذ بالله .

وهل كان المنافقون مهتدين ؟ وهل كان الهدى ملكاً لهم حتّى يتصرّفوا فيه ويجعلوه ثمناً للضّلالة ؟ إنّ المنافقين لم يكونوا وقتاً من الأوقات مهتدين بنصّ الآية الكريمة وما كان الهدى وقتاً من الأوقات ملكاً لهم حتّى يتصرّفوا فيه ، ولكنّ الآية الكريم تريد أن تصوّر المدى البعيد لعمى البصيرة الّذى انتهى إليه المنافقون للدّرجة الّتى لم يتبينوا معها حقيقة الهدى الّذى يتّسم به القرآن الكريم تنزيل ربّ العالمين باللّسان العربّي المبين ، وحقيقة الهدى الّذى جاء به المصطفى ﷺ أشرف الأنبياء والمرسلين . وأىّ ضلالٍ وعمى بصيرة يفوق الضّلال والعمى اللّذين يتّسم بهما من لا يهتدى بنور القرآن الكريم الّذى ينزل تباعاً غضاً طريّاً على رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة والنّور المبين والسّراج المبين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى يعيش بين ظهرانيْهمْ والّذى يرتّل القرآن الكريم على مسامعهم فى المحراب وفى غير المحراب ترتيلاً ، والّذى يبيّن لهم معانى القرآن الكريم بسنّته المطهّرة الّتى تشمل أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته . إنّ ضلال القوم وعمى بصيرتهم لا يمكن أن يكون وراءه ما هو أسوأ منه . لقد كان حال المنافقين فى إمكان الاستضاءة بنور القرآن الكريم ونور خاتم الأنبياء والمرسلين شبيهاً بحال المالك للشّىء الحرّ التّصرّف فيه لو لم يكن على قلوب القوم أقفالها ، وعلى أبصارهم غشاوة ، وعلى سمعهم ختم . وها هم أولاء وقد أعمى الله تعالى أبصارهم يرفضون اختيار الهدى والقبض عليه بأيديهم وهو فى حكم ما لامس أيديهم وحطّ فيها ويؤثرون عليه الضّلالة فكأنّهم دفعوا الهدى ثمناً لشرائهم تلك الضّلالة الّتى أحبّوها حبًّا جمًّا مقابل بغضهم للهدى . وحينما نتبيّن أنّ الهدىّ الّذى جاء به القرآن الكريم والرّسول العظيم هو الفطرة ، لأن الإسلام هو دين الفطرة ، ولأنّ الإنسان مفطورٌ على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ندرك المجهود الكبير والتّعب الأكيد الّذى بذله المنافقون فى سبيل الحصول على الضّلال البعيد

والشّقاء الشّديد والشّقاق البعيد . جاء فى تفسير الطّبرى[1] : « قال أبو جعفر فكان الّذين قالوا فى تأويل ذلك أخذوا الضّلالة وتركوا الهدى ، وجّهوا معنى الشّراء إلى أنّه أخذ المُشْتَرى مكان الثّمن المُشْتَرَى به فقالوا : كذلك المنافق والكافر قد أخذ مكان الإيمان الكفر ، فكان ذلك منهما شراءً للكفر والضّلالة اللّذين أخذاهما بتركهما ما تركا من الهدى . وكان الهدى الّذى تركاه هو الثّمن الّذى جعلاه عوضاً من الضلالة الّتى أخذاها » . وقال ابن عبّاس : أخذوا الضّلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنّما أخرجه بلفظ الشّراء توسُّعا ، لأنّ الشّراء والتّجارة راجعان إلى الاستبدال . والعرب تستعمل ذلك فى كلّ من استبدل شيئاً بشىء . قال أبو ذؤيب :

وإن تزعمينى كنت أجهل فيكم فإنّى اشتريت الحلم بعدك بالجهــل[2]

ولم يقف التّوسّع فى الآية الكريمة عند استعمال جملة « اشتروا » من الشّراء بمعنى الاستبدال والاختيار ، إنّما تجاوز ذلك إلى أمرٍ آخر بعيدٍ من جنسه ألا وهو التّجارة والرّبح المرغوب فيه ، ومعروف أنّ عماد الرّبح فى التّجارة الشّراء الّذى يرتبط به صنوه البيع كظلّه . فإذا ذكر الشّراء ارتبط به البيع آليّاً . وإذا ذكر البيع ارتبط به الشّراء آليّاً . ونستطيع أن نضيف إلى هذا الارتباط الآلىّ بين البيع والشّراء أنّ الأساس فى هاتين العمليتين والسّابق عادة هو الشّراء ، وهو الّذى جاء ذكره فى الآية الكريمة بصريح اللّفظ تقريباً . قال تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

لقد تبيّنّا من ذى قبل دور الفاء العاطفة وأنّها تدلّ على تحقّق عدم الرّبح فى ذات الوقت تقريباً الّذى تمّ فيه الشّراء . فثمّة خسارة شديدة الوضوح أكيدة . ونتبيّن كذلك أنّ الآية الكريمة تنسب الرّبح إلى التّجارة ، وذلك على عادة العرب فى كلامها « فسلك فى خطابه إيّاهم وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضاً وبيانهم المستعمل بينهم . فلمّا كان فصيحاً لديهم قول القائل لآخر : خاب سعيك ونام ليلك وخسر بيعك ونحو ذلك من الكلام الّذى لا يخفى على سامعه ما يريد قائله ، خاطبهم بالّذى هو فى منطقهم من الكلام فقال : فما ربحت تجارتهم إذ كان معقولاً عندهم أنّ الرّبح إنّما هو فى التّجارة كما النّوم فى

---

(١) ١/١٠٦ (٢) تفسير القرطبى ص ١٨٢

اللّيل فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك عن أن يقال : فما ربحوا فى تجارتهم وإن كان ذلك معناه »[١] وقد أحسن كلٌّ من الزّمخشرىّ وأبى حيّان التّعبير عن المجاز وترشيح المجاز فى الجزئيّة الكريمة . يقول الزّمخشرىّ[٢] : « فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التّجارة وهو لأصحابها ، قلت : هو من الإسناد المجازىّ وهو أن يسند الفعل إلى شيءٍ يتلبّس بالّذى هو فى الحقيقة كما تلبّست التّجارة بالمشترين ..... فإن قلت : هب أنّ شراء الضّلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الرّبح والتّجارة ، كأنّ ثمَّ مبايعةً على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصّنعة البديعة الّتى تبلغ بالمجاز الذّروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثمّ تقفّى بأشكالٍ لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجةً وأكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشّح » ويقول أبو حيّان[٣] : « ونسبة الرّبح إلى التّجارة من باب المجاز ، لأنّ الّذى يربح أو يخسر إنّما هو التّاجر لا التّجارة . ولّما صور الضّلالة والهدى مشترًى وثمناً رشّح هذا المجاز البديع بقوله تعالى : فما ربحت تجارتهم ، وهذا من باب ترشيح المجاز ، وهو أن يبرز المجاز فى صورة الحقيقة ثمّ يحكم عليه ببعض أوصاف الحقيقة ، فينضاف مجاز إلى مجاز» .

ولّما كان من متعلّقات التّجارة الرّابحة الرّبح الّذى يكسبه التّاجر وهذا يعنى سلامة رأس المال بالضّرورة ، ولّما كانت الآية الكريمة قد بيّنت أنّ تجارة المنافقين لم تكن رابحة وذلك فى القول : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ ولكنّ هذا القول ليس من الضّرورىّ أن يفهم معه أنّ الخسارة لم تقف عند عدم وجود الرّبح إنّما تجاوزته إلى رأس المال الّذى أتت عليه أو على بعضه . إنّ هذا القول : ﴿فما ربحت تجارتهم ﴾ يفهم منه عدم تحقّق الرّبح ولكن لا يفهم منه بالضّرورة أنّ الخسارة امتدت إلى رأس المال . وهنا تبيّن الآية الكريمة فى القول ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أنّ الخسارة شملت كلّ رأس المال وهو الهداية المنفيّة . إنّ رأس مال المنافقين كان هو الهدى فلم يبق لهم مع الضّلالة[٤] وهذا النّوع من البيان

---

(١) تفسير الطبرى ١/١٠٨
(٢) الكشّاف ١/١٤٧
(٣) البحر المحيط ١/٧٢
(٤) انظر الكشّاف ١/١٤٩

يسمّى التّتميم . يقول أبو حيّان[١] : « لّما لم يكن قوله تعالى : فما ربحت تجارتهم ، مفيداً لذهاب رءوس أموالهم أتبعه بقوله : وما كانوا مهتدين . فكمل المعنى بذلك وتمّ به المقصود . وهذا النّوع من البيان يقال له التّتميم ، ومنه قول امرئ القيس :

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الّذى لم يثقّب

تمّم المعنى بقوله الّذى لم يثقّب وكمل الوصف » .

إنّ الآية الكريمة بعد أن بيّنت أنّ المنافقين استبدلوا الضّلالة بالهدى الّذى يقابلها ، نفت عنهم الاهتداء والرّشد مطلقاً وبذلك اتّضح أنّ القوم لم تسبق لهم هداية . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة الّتى يختم بها مجموعةٌ من صفات المنافقين تنفى الهدى عن المنافقين وذلك فى مقابل إثبات آخر الآيات الّتى تتحدّث عن مجموعة من صفات المتّقين صفة الهدى وتمكنّهم منه . قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

مَثَلان نارىّ ومائىّ

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ المنافقين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . ويتحوّل السّياق إلى تبيين مثل هؤلاء الّذين استبدلوا الّذى هو أدنى بالّذى هو خير فاستبدلوا الضّلالة بالهدى ، والكفر بالإيمان ، والعذاب بالمغفرة . وهذا المثل ذو شقّين ، نارىّ ومائىّ . أمّا المثل النّارى فيتكوّن من آيتين كريمتين ، هذه أولاهما .

---

(١) البحر المحيط ١/٧٣

الآيــة رقــم (١٧)

قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يُبْصرون ﴾ .

« المثل فى أصل كلام العرب بمعنى المِثْل والمثيل . كشَبَه وشِبه وشبيه . وهو النّظير . ويجمع المَثَل والمِثْل على أمثال . قال اليزيدى : الأمثال الأشباه . وأصل المِثْل الوصف . هذا مِثْل كذا أى وصفه مساوٍ لوصف الآخر بوجهٍ من الوجوه . والمَثَل : القول السّائر الّذى فيه غرابةٌ من بعض الوجوه[1] وقيل المَثَل ذكر وصفٍ ظاهرٍ محسوس وغير محسوس ، يستدلّ به على وصفٍ مشابهٍ له من بعض الوجوه فيه نوعٌ من الخفاء ليصير فى الذّهن مساوياً للأوّل فى الظّهور من وجهٍ دون وجه . والمقصود من ذكر المثل أنّه يؤثّر فى القلوب ما لا يؤثّره وصف الشّئ فى نفسه ، لأنّ الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفىّ بالجلىّ والغائب بالشّاهد ، فيتأكّد الوقوف على ماهيّته ويصير الحسّ مطابقاً للعقل »[2] ويقول الزّمخشرىّ[3] بشأن ضرب المثل فى القرآن الكريم وغيره :« لّما جاء بحقيقة صفتهم عقّبها بضرب المثل زيادةً فى الكشف وتتميماًللبيان . ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنّظائر شأنٌ ليس بالخفىّ فى إبراز خبيّات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق ، حتّى تريك المتخيّل فى صورة المحقّق ، والمتوهّم فى معرض المتيقّن ، والغائب كأنّه مشاهد . وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ وقمعٌ لسورة الجامح الأبىّ . ولأمرٍ مّا أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت فى كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها

---

(١) يقول الزّمخشرىّ فى الكشّاف ١٤٩/١ : « ثمّ قيل للقول السّائر الممثّل مضربه بموْرده مثل » . ويعلّق السّيّد الحسينى الجرجانى (حاشية الكشاف ١٤٩/١) : « وأنّما سمّى مثلاً لأنّه جعل مضربه وهو ما يضرب فيه ثانياً ، مثلاً لمورده وهو ما ورد فيه أوّلا » .

(٢) البحر المحيط ٧٤/١ وانظر الكشّاف ١٤٩/١ وتفسير القرطبى ص ١٨٣ والجلالين .

(٣) الكشّاف ١٤٩/١ .

إلاّ العالمون . ومن سور الإنجيل سورة الأمثال .... ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتّسيير ولا جديراً بالتّداول والقبول إلاّ قولاً فيه غرابةٌ من بعض الوجوه وَمِنْ ثَمَّ حوفظ عليه وحُمِي من التّغيير » .

الّذى : يقع للواحد والجمع[١] وقد حُمِل أوّل الكلام على الواحد فى القول : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ﴾ فالمستوقد واحد وقد أضاءت النّار ما حول ذلك المستوقد . وحُمِل آخر الكلام على الجمع فى القول : ﴿ ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون ﴾ فالله سبحانه وتعالى ذهب بنور المنافقين وتركهم جلّ وعلا فى ظلماتٍ فهم لا يُبْصرون . « وقيل : إنّما وحّد الّذى واستوقد لأنّ المستوقد كان واحدًامن جماعة تولّى الإيقاد لهم . فلمّا ذهب الضّوء رجع عليهم جميعاً فقال : بنورهم »[٢] .

واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب . فالسّين والتّاء زائدتان . قاله الأخفش[٣] كما قال الشاعر :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

يريد فلم يجبه[٤] ووقود النّار سطوعها وارتفاع لهبها[٥]

والنّار مؤنّثة وهى من النّور وهو أيضاً الإشراق[٦] والنّون والواو والرّاء أصلٌ صحيح يدلّ على إضاءةٍ واضطراب وقلّة ثبات . منه النّور والنّار ، سمّيا بذلك من طريقة الإضاءة ، ولأنّ ذلك يكون مضطرباً سريع الحركة .....والّذى قلناه فى قلّة الثّبات امرأةٌ نوار ، أى عفيفةٌ تنور أى تنفِر من القبيح ، والجمع نُورٌ . ونارَتْ نَفَرَتْ نَوْراً[٧] والنّار

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٨٣ (٢) تفسير القرطبى ص ١٨٤

(٣) تفسير القرطبى ص ١٨٤

(٤) تفسير الطبرى ١/١٠٩ وانظر البحر المحيط ١/٧٨ وتفسير القرطبّى ١٨٤ .

(٥) الكشّاف ١/١٥١ وانظر البحر المحيط ١/٧٥

(٦) تفسير القرطبى ص ١٨٤

(٧) معجم مقاييس اللّغة « نور » وجاء فى الهامش : « ويقال فى المصدر النَّوار أيضاً بالفتح . والاسم بالكسر نِوار » .

جوهرٌ لطيفٌ مضيء حارّ محرق . والنّور ضوءها وضوء كلّ نيّر ، وهو نقيض الظلمة[١] ونكّر ناراً وأفردها لأنّ مقابلها من وصف المنافق إنّما هو نزرٌ يسير من التّقييد بالإسلام وجوانحه منطويةٌ على الكفر والنّفاق مملوءةٌ به . فشبّه حاله بحال من استوقد ناراً مّا ، إذ لا يدلّ إلاّ على المطلق لا على كثرةٍ ولا عهد[٢] .

والفاء فى فلمّا للتّعقيب ، وهى عاطفةٌ جملة الشّرط على جملة الصّلة[٣]ولمّا جوابها ذهب الله بنورهم[٤] .

والإضاءة : فرط الإنارة . ومصداق ذلك قوله : ﴿ هو الّذى جعل الشّمس ضياءً والقمر نورا ﴾[٥] والضّاد والواو والهمزة أصلٌ صحيح ، يدلّ على نور . من ذلك الضّوء والضُّوء بمعنًى ، وهو الضّياء والنّور . قال الله تعالى : ﴿ فلمّا أضاءت ما حوله ﴾ . قال أبو عبيد : أضاءت النّار وأضاءت غَيْرَها[٦] وضاءت وأضاءت لغتان . يقال : ضاء القمر يضوء ضوءًا وأضاء يضيء : ويكون لازماً ومتعدّياً .... قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى اللّيل حتّى نظّم الجَزْع[٧] ثاقبُه[٨]

وهى فى الآية متعدّية[٩]فإذا كانت « أضاءت » متعدّيةً كانت الهمزة فيها للنّقل إذ يقال ضاء المكان ، كما قال العباس بن عبد المطّلب فى النّبىّ ﷺ .

وأنت لمّا ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق[١٠]

وحوله : ظرف مكان لا يتصرف[١١] نصب على الظّرف وتأليفه للدّوران والإطافة

---

(١) الكشّاف ١/١٥١ وانظر البحر المحيط ١/٧٥

(٢) البحر المحيط ١/٧٨ (٣) البحر المحيط ١/٧٨

(٤) البحر المحيط ١/٧٩ وانظر الكشّاف ١/١٥٢ وتفسير القرطبىّ ص ١٨٤ .

(٥) الكشّاف ١/١٥٢ (٦) معجم مقاييس اللّغة « ضوأ »

(٧) الجَزْع بسكون الزّاى خرزٌ فيه سواءٌ وبياض واحدته جَزْعة .

(٨) تفسير القرطبى ص ١٨٤

(٩) الكشّاف ١/١٥٢ وانظر البحر المحيط ١/٧٩

(١٠) انظر البحر المحيط ١/٧٨

(١١) البحر المحيط ١/٧٥ وانظر تفسير القرطبى ص ١٨٥

..... وقيل للعام حولٌ لأنّه يدور[١] .

وذهب وأذهب : لغتان من الذّهاب وهو زوال الشّيء[٢] والفرق بين أذهبه وذهب به أنّ معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً . ويقال : ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه . وذهب السّلطان بما له أخذه . فلمّا ذهبوا به . إذاً لذهب كلّ إلٰه بما خلق . ومنه ذهبت به الخيلاء . والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه . وما يمسك الله فلا مرسل له . فهو أبلغ من الإذهاب[٣] .

فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى فى قوله : ذهب الله بنورهم . قلت : إذا أطفئت النّار بسببٍ سماوىّ ، ريحٍ أو مطرٍ ، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد[٤] .

والباء فى بنورهم للتّعدية[٥] وذهب أبو العبّاس إلى أنّك إذا قلت قمت بزيد دلّ على أنّك قمت وأقمته . وإذا قلت أقمت زيداً لم يلزم أنّك قمت . ففرق بين الباء والهمزة فى التّعدية . وإلى نحو من مذهب أبى العبّاس ذهب السهيلىّ[٦] .

وإضافة النّور إليهم من باب الإضافة بأدنى ملابسة إذْ إضافته إلى النار هو الحقيقة ، لكن لّما كانوا ينتفعون به صحّ إضافته إليهم[٧] وترك بمعنى طرح وخلّى ، إذا علق بواحدٍ كقولهم : تركه ترك ظبيٍ ظلّه[٨] فإذا علق بشيئين كان مضمّناً معنى صيّر ، فيجرى مجرى أفعال القلوب كقول عنترة :

فتركته جَزَر السّباع ينشنه

---

(١) الكشّاف ١/١٥٢ (٢) تفسير القرطبى ص ١٨٥

(٣) الكشّاف ١/١٥٤ (٤) الكشّاف ١/١٥٣

(٥) البحر المحيط ١/٧٩

(٦) البحر المحيط ١/٨٠ وجاء قبله عن الباء : « وهى عند جمهور النّحويّين ترادف الهمزة فإذا قلت : خرجت بزيد فمعناه أخرجت زيداً ولا يلزم أن تكون أنت خرجت » .

(٧) البحر المحيط ١/٨٠

(٨) علّق السّيّد الحسينى على قول الزّمخشرى : ترك ظبىٍ ظلّه الكشاف ١/١٥٤ « أى كُناسه الّذى يستظلّ فيه من شدّة الحرّ . وهو مَثَلٌ فى التّرك الكلّىّ . فإنّ الظّبى إذا نفر من مكان لم يعد إليه أصلاً وذلك فى الصّغير أقوى لنفرته طبعًا وعدم تهدّيه إلى المنزل وقلّة إلفه وتمثّل المزعج فى خياله » .

ومنه قوله : وتركهم فى ظلمات . أصله : هم فى ظلمات ، ثمّ دخل ترك فنصب الجزأين[١] .

فى ظلمات جمع ظلمة ..... وقال الكسائىّ : ظلمات جمع الجمع ، جمع ظُلَم[٢] وقرأ الجمهور فى ظلمات بضمّ اللاّم ..... لأنّ كلّ واحدٍ له ظلمةٌ تخصّه فجمعت لذلك . وحيث وقع ذكر النّور والظّلمة فى القرآن جاء على هذا المنزع من إفراد النّور وجمع الظّلمات ..... ونكّرت الظّلمات و لم تضف إلى ضميرهم كما أضيف النّور اكتفاءً بما دلّ عليه المعنى من إضافتها إليهم من جهة المعنى واختصار اللّفظ[٣] .

بعد هذه الجولة الواسعة مع معانى ألفاظ الآية الكريمة تأتى الثّمرة وهى الدّراسة المتأمّلة . وإنّ أوّل مسألةٍ نودّ أن نقف عندها مليّاً هى الفرق بين جملتى أضاءت الّتى جاءت فى الآية الكريمة وصنوها أنارت . وبين لفظة نور الّتى جاءت هى الأخرى فى الآية الكريمة وصنوها الضّوء . إنّ معرفة الفروق الدّقيقة فى المعانى أمرٌ حيوىٌّ فى سبيل الكشف عن مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . وإنّ وسيلتنا الأولى فى سبيل ذلك آى الذّكر الحكيم . إنّه بتدبّر آى الذكر الحكيم يتبيّن أنّ جملة أضاء ترتبط بما هو مصدرٌ مباشرٌ للطّاقة ، كالشّمس مثلاً ، فإنّها نجمٌ متوهّج . أمّا الّذى يصدر عن هذا النّجم المتوهّج وما هو فى حكمه فإنّه الضّياء أو الضّوء . وباعتبار الضّياء أو الضّوء نابعاً من مصدره مباشرة فإنّ من متعلّقاته القوّة والحرارة والإحراق .

أمّا جملة أنار فإنّها ترتبط بما هو ليس مصدراً مباشراً للطّاقة ، كالقمر مثلاً ، فإنّه كوكبٌ غير متوهّج ، إذإنه يستمدّ نوره من الشّمس ويقوم بدور المرآة العاكسة . أمّا الّذى يعكسه هذا الكوكب غير المتوهّج وما هو فى حكمه فإنه النّور . وباعتبار النّور صادراً من غير منبعه مباشرة فإنّ من متعلّقاته الضّعف والبرودة بالقياس إلى الضوء . وإنّ أدلّتنا على ما نقول مستمدةٌ من آى الذّكر الحكيم . جاء فى سورة يونس[٤] قوله تعالى :

---

(١) الكشّاف ١/١٥٤ وانظر البحر المحيط ١/٧٥

(٢) تفسير القرطبى ص ١٨٥ (٣) البحر المحيط /٨٠ ، ٨١

(٤) الآية ٥

﴿ هو الّذى جعل الشّمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق ، يفصّل الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ وجاء فى سورة نوح[١] قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَوْا كيف خلق الله سبع سماواتٍ طباقاً . وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشّمس سراجا ﴾ وجاء فى سورة الفرقان[٢] قوله تعالى : ﴿ تبارك الّذى جعل فى السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا ﴾ . وجاء فى سورة النّبأ[٣] قوله تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً وهّاجا ﴾[٤] .

فى ضوء معرفة الفروق الدّقيقة بين الضّوء والنّور ، استناداً إلى آى الذّكر الحكيم ، نستطيع — مستعينين بالله تعالى — أن نتأمّل الآية الكريمة ، وأن نحاول الغوص إلى أعماقها . إنّ الآية الكريمة فى حديثها عن المنافقين الّذين عرفنا من قبل الكثير من صفاتهم ، وكلها سيّىء ، تجعل مثلهم وصفتهم ووصفهم ، وهم الّذين لم يتسرّب إلى قلوبهم ضوء الإيمان و لم تستدفئ به ، و لم يتسلّل إلى نفوسهم نور اليقين و لم تبترد به ، مثل ذلك الّذى أوقد لنفسه ولجماعته ناراً بقصد الحصول على الضّوء فالنّور ، على الدّفء والاهتداء والأمن . ويلاحظ أنّ هذا المستوقد إنّما يحصل على ما يريد ممّا ينقصه من خارج ذاته وليس من داخلها ، من النّار الّتى أوقدها . وهذا هو حال المنافق الّذى يحصل بإعلانه بلسانه شهادة ألاّ إلـه إلا الله وأنّ محمّدا رسول الله دون أن يؤمن بها قلبه أنواعاً من المنافع العاجلة الزّائلة لا محالة عند الموت حينما تتوفّى الملائكة المنافقين ظالمى أنفسهم . ومن هذه المنافع العاجلة الزّائلة انضمام المنافق إلى جماعة المسلمين واعتباره واحداً منهم وانتفاعُه فى مجال النّكاح والتّوارث والغنائم والفىء والأمن على النّفس والأهل والأموال .

---

(١) الآية ١٥ ، ١٦ (٢) الآية ٦١

(٣) الآية ١٣ .

(٤) فى دراستنا المتأمّلة لسورة الأحزاب المدنيّة تبيّنّا بشأن المصطفى ﷺ أنّ رب العزّة يخلع عليه ﷺ صفة السّراج المنير وليس السّراج المضىء ، وذلك فى قوله تعالى الآية ٤٥ ، ٤٦ : ﴿ يا أيّها النّبىّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ وقد نبّهنا إلى كون الآية الكريمة خلعت عليه ﷺ خير ما فى كلّ من الشّمس والقمر . أمّا الشّمس فلكونها مصدراً للطّاقة « وسراجا » وأمّا القمر فلانتفاء أىّ أذى عن نوره « منيرا » انظر تأمّلات فى سورة الأحزاب ٣٩٩ — ٤٠٤

إلى غير ذلك من منافع مصيرها إلى الزّوال والفناء لأنّ القاعدة الّتى تقوم عليها تلك المنافع ليست ذاتيّة وليست صلدة كالّتى يعتمد عليها المؤمنون المتّقون المفلحون . ومن هنا كان مثل المنافق الّذى يستمدّ منافعه من خارج ذاته ، كمثل الّذى استوقد ناراً فى ليلة مظلمةٍ ظلمة نفس ذلك المنافق الخربة ، فإذا انطفأت تلك النّار عاد إلى الظّلمة السّابقة ، بل إلى ظلمةٍ أشدّ منها سواداً ، على نحو ما هو معروف عن الظّلام الّذى يعقب النّور والّذى يفوق الظّلام الّذى يسبق النّور . إنّ المنافقين أساساً فى ظلمة ، وقد استناروا وانتفعوا بنور الإسلام فى مجال المنافع المادّية وحدها. وهذا النّفع مصيره إلى الزّوال مهما طال مداه . وكما كان ظلام المستوقد بعد انطفاء النّار أشدّ ، كذلك كانت ظلمة المنافقين بعد ادّعائهم الإسلام ، وتوفّى الملائكة لهم ظالمى أنفسهم[1] وافتضاحهم على رءوس الأشهاد ، أشدّ من الظّلام السّابق على ادّعاء الإسلام ، لأن مصير الادّعاء معروف ، إنّه الدّرك الأسفل من النّار والعياذ بالله . وسبق أن فهمنا من تنكير « نارا »أنّها تدلّ على مطلق النّار ، وهى نارٌ ضعيفة على غرار تقيّد المنافق بالنّزر اليسير من تعاليم الإسلام .

ويفهم أنّ للنّار الموقدة صفتين ، صفة الإضاءة ، وهى عبارةٌ عن شدّة ضوء النّار بالنّسبة لما جاورها ، وقد عُبِّر عن هذه الصّفة بإضاءة النّار ما حول المستوقد . وصفة الإنارة ، وهى عبارة عن النّور الّذى يصل إلى ما ابتعد عن النّار وعن مُوقِدها ، وقد عُبِّر عن هذه الصّفة بذهاب الله تعالى بنور رفاق المستوقد . قال تعالى : ﴿ فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ .

ويُفْهم كذلك مِنْ إيقاد النّار وما يتعلّق بها أنّ للنّار الموقدة المشتعلة المتأجّجة من الصّفات الرّئيسيّة ما قد يختلف قليلاً عنها وقد ذهبت شعلتها . إنّ للنّار فى حال تأجّجها وفى حال ذهاب شعلتها الإحراق مع تفاوت درجاته . ويلصق بالنّار المشتعلة النّور والإنارة ، ويلصق بالنّار الّتى ذهبت شعلتها الدّخان .

ويُفْهم كذلك أنّ النّور المشار إليه فى الآية الكريمة والمستمدّ من النّار الموقدة ، إنّما هو رمزٌ لنور الهداية الّذى استعاره المنافقون وانتفعوا به لأغراضهم الرّخيصة الوضيعة ،

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١/١١١ و ١١٢

وذلك بإعلانهم الإسلام ، وكان بإمكانهم أن يحافظوا عليه وأن ينموّه لو كانوا صادقى الإيمان و لم يكونوا كاذبين .

وتشير الآية الكريمة إلى كونه جلّ وعلا قد ذهب ، بسبب سماوىّ، بنور المنافقين . ويتمّ ذلك بإطفاء شعلة النّار الموقدة ، ويبقى وراء ذلك إحراق النّار ودخانها كى يتأذّى بهما المنافقون(١) .

إنّ أهمّ ما يحتاج إليه المنافقون نور الهداية الّذى عبثوا به وفرّطوا فيه ، والّذى عبّر عنه بالنّور وقد ذهب الله تعالى به . وانظر إلى حرف الجرّ من القول « به » الدّالّ على المصاحبة . إنّه ذهابٌ بإرادة الله تعالى لا رجعة بعده . وبذهاب النّور تركهم الله تعالى حيارى متردّدين شاكّين مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فى ظلمات النّفاق والكفر والضّلال ، تلك الظّلمات الّتى لكلّ واحدٍ من المنافقين منه نصيبٌ موفور .

وبما أنّ القوم قد غدوا فى ظلمات ، وبما أنّ هذه الظلمات متعلّقةٌ بما هو خارجٌ عن ذوات المنافقين ، بسبب ذهاب الله تعالى بنور المنافقين النّاجم عن النّار الموقدة ، فإنّ الآية الكريمة فى تذييلها « لا يبصرون » قد نبّهت على هذه الأسباب الخارجيّة وأوحت بها ، فالقوم الآن لا يبصرون بسبب ذهاب النّور وليس بسبب ذهاب أبصارهم ، بدليل أنّهم كانوا يبصرون بأعينهم نور النّار القليل الّذى ساروا وفقه واهتدوا إلى حينٍ بهديه . ومعروفٌ أنّ العين تبصر بسبب تحويل العين النّور الّذى يصل إليها إلى صورة ، ومن هنا كانت العين لا تبصر فى الظّلام ، لأنّه ثمّة النّور الخارجىّ الّذى يقع عليها فتحوّله إلى صورةٍ تُرى . ويقول الزّمخشرى(٢) : « فإن قلت : هلاّ قيل ذهب الله بضوئهم لقوله : فلمّا أضاءت . قلت : ذكر النّور أبلغ لأنّ الضّوء فيه دلالةٌ على الزّيادة ، فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذّهاب بالزّيادة وبقاء ما يسمّى نورا . والغرض إزالة النّور عنهم

---

(١) انظر أمثال القرآن لابن القيم ص ١٨ وتفسير ابن كثير ١/٥٣ والتّفسير القيمّ ص ١١٥ وجاء فى الأخير : « وقال سبحانه وتعالى : ذهب الله بنورهم و لم يقل : ذهب نورهم . وفيه سرٌّ بديع وهو انقطاع سرّ المعيّة الخاصّة الّتى هى للمؤمنين من الله تعالى » .

(٢) الكشّاف ١/١٥٤

رأساً وطمسه أصلاً . ألا ترى كيف ذكر عقيبه : وتركهم فى ظلمات . والظّلمة عبارةٌ عن عدم النّور وانطماسه . وكيف جمعها . وكيف نكّرها . وكيف أتبعها ما يدلّ على أنّها ظلمةٌ مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله : لا يبصرون » . ويقول الطّبرى فى تأويل الآية الكريمة[1] : « فأولى تأويلات الآية بالآية : مثل استضاءة المنافقين بما أظهروا بألسنتهم لرسول الله ﷺ ، من الإقرار به وقولهم له وللمؤمنين آمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر حتّى حكم لهم بذلك فى عاجل الدّنيا بحكم المسلمين فى حقن الدّماء والأموال والأمن على الذّرّيّة من السّباء وفى المناكحة والموارثة كمثل استضاءة الموقد النّار بالنّار حتّى ارتفق بضيائها وأبصر ما حوله مستضيئاً بنوره من الظّلمة حتّى خمدت النّار وانطفأت فذهب نور وعاد المستضىء به فى ظلمةٍ وحيرة . وذلك أنّ المنافق لم يزل مستضيئاً بضوء القول الّذى دافع عنه فى حياته القتل والسّباء مع استبطانه ما كان مستوجباً به القتل وسلب المال لو أظهره بلسانه تخيّل إليه بذلك نفسه أنّه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزئ مخادع حتّى سوّلت له نفسه إذ ورد على ربّه فى الآخرة أنّه ناجٍ منه بمثل الّذى نجا به فى الدّنيا من الكذب والنّفاق . أو ما تسمع الله جلّ ثناؤه يقول إذ نعتهم ثمّ أخبر خبرهم عند ورودهم عليه : يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنّهم على شىء ألا إنّهم هم الكاذبون . ظنّاً من القوم أنّ نجاتهم من عذاب الله فى الآخرة فى مثل الّذى كان به نجاتهم من القتل والسّباء وسلب المال فى الدّنيا من الكذب والإفك ، وأنّ خداعهم نافعهم هنالك نفعه إيّاهم فى الدّنيا حتّى عاينوا من أمر الله ما أيقنوا به أنّهم كانوا من ظنونهم فى غرور وضلال واستهزاء بأنفسهم وخداع إذ أطفأ الله نورهم يوم القيامة فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورهم فقيل لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا واصلوا سعيرا ، فذلك حين ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون كما انطفأت نار المستوقد النّار بعد إضاءتها له فبقى فى ظلمته حيران تائها » قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى ١/١١٢

الآيــة رقــم (١٨)

قال تعالى ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ .

هذه هى الآية الكريمة الثّانية الّتى يتمّ بها المثل النّارىّ . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة السّابقة تتعامل مع النور الخارجىّ الّذى استعاره المنافقون إلى حين والّذى ما لبث أن ذهب إلى غير رجعة تماماً كما ذهب النّور النّاجم عن النّار الموقدة الّتى ما لبث أن خبا لهيبها وانطفأت شعلتها . لقد غدا كلٌّ من المنافقين والمستنيرين بالنّار فى ظلامٍ دامس بسبب ذهاب النّور الخارجىّ فى حقّ كلٍّ من الفريقين ، نور الإسلام الّذى تظاهر المنافقون بادّعائه ونور النّار الّتى انطفأت بعد إيقاد المستوقد لها . وهذه الآية الكريمة التّالية تكمل الشّقّ الثّانى الداخلىّ هذه المرّة ، والّذى ذهب بسببه نور الإسلام الّذى تظاهر به المنافقون فغدوا فى ظلامٍ دامس .

كان حديث الآية الكريمة السّابقة متعاملاً مع العين ومع الإبصار ، لأنّ نور النّار المستعار لنور الإيمان إنّما تدركه العين أساساً ، ومن هنا كان الحديث عن نفى الإبصار ذا شقّين . الشّقّ الظّاهر هو الّذى يراد به ذهاب نور النّار الّذى تبصره العينان . والشّقّ الباطن هو الّذى يراد به انطماس نور البصيرة ، نور القلوب الّتى فى الصّدور.

وحينما أرادت الآية الكريمة التّالية تعميق هذا المعنى عن طريق إثبات العمى الدّاخلى هذه المرّة ، وبما أنّ هذا النّوع الرّهيب من عمى البصيرة إنّما هو وليد تعطيل عددٍ من الجوارح عن عملها الصّحيح وتعاونها الذّميم على العمل القبيح ، فقد كان حديث الآية الكريمة عن هذه الجوارح المعطّلة مرتّبةً وفق نسقٍ منطقىّ عجيبٍ وبديع . إنّ الآية الكريمة تقدّم السّمع لأهمّيته هنا ، وتقرن به البَكم لاقترانهما أساساً فى الخلقة بإرادة الله تعالى وتؤخّر الإبصار فى موضعه . وإنّ الجمع بين الصّمم والبكم فى الآية الكريمة وفى آيات أخر مع اختلاف التّرتيب وفق مقتضى المعنى ، يغرينا بتدوين هذه الآيات الكريمات .

جاء فى سورة البقرة[١] قوله تعالى : ﴿ ومَثَلُ الّذين كفروا كمثل الّذى ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنفى العقل هنا بينما تنفى الآية الكريمة السّابقة الرّجوع . وجاء فى سورة الأنفال[٢] قوله تعالى : ﴿ إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصّمّ البكم الّذين لا يعقلون ﴾ وجاء فى سورة الإسراء[٣] قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد ومن يُضْلِلْ فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصُمّاً ، مأواهم جهنّم كلّما خبت زدناهم سعيرا ﴾ ويلاحظ هنا تقديم العمى ، كما يلاحظ الجمع بين البَكم والصّمم مع تقديم البكم . وجاء فى سورة الأنعام[٤] قوله تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا صمٌّ وبكم فى الظّلمات ، من يشأ الله يُضْلِلْه ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ . ويلاحظ أنّ الظّلمات الّتى تأخّر ذكرها فى السّياق تتعامل معها العينان أساساً .

قرأ الجمهور صمٌّ بكمٌ عميٌ بالرّفع . وهو على إضمار مبتدأ تقديره هم صمّ . وهى أخبارٌ متباينةٌ فى اللّفظ والدّلالة الوضعيّة ، لكنّها فى موضع خبرٍ واحد إذ يئول معناها كلّها إلى عدم قبولهم الحقّ وهم سُمَعاءُ الآذان فُصُح الألسن ، بُصَراء الأعين ، لكنّهم لم يصيخوا إلى الحقّ ولا نطقت به ألسنتهم ولا تلمّحوا أنوار الهداية[٥] والصَّمم فى كلام العرب الانسداد . يقال : قناةٌ صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصممت القارورة إذا سددتها . فالأصمّ : من انسدّت خروق مسامعه[٦] .

والأبكم الّذى لا ينطق ولا يفهم . فإذا فهم فهو الأخرس[٧] والبَكَم : الخَرَس مع عِيٍّ وبَلَه .... وقوله تعالى : ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ ﴾ ، قال أبو إسحاق : قيل معناه أنّهم بمنزلة مَنْ وُلِدَ أخْرس ..... وفى حديث الإيمان : الصُّمّ البُكم ، قال ابن الأثير : البُكم جمع

---

(١) الآية ١٧١ (٢) الآية ٢٢
(٣) الآية ٩٧ (٤) الآية ٣٩
(٥) البحر المحيط ٨١/١ وانظر تفسير القرطبى ص ١٨٥
(٦) تفسير القرطبى ص ١٨٥ وانظر البحر المحيط ٧٥/١
(٧) تفسير القرطبى ص ١٨٥

الأبكم وهو الّذى خُلِق أخرس ، وأراد بهم الرّعاع والجُهّال لأنّهم لا ينتفعون بالسّمع ولا بالنّطق كبير منفعةٍ فكأنّهم قد سُلِبوهما[١] ويفهم من هذه النّصوص أنّ الأبكم هو الّذى لا يفهم الكلام ولا يهتدى إلى وجه الصّواب وبذلك يجتمع إلى داء اللّسان داءٌ فى الفؤاد . وهذا المعنى يصحّ فهمه من هذه الآية الكريمة من سورة النحل[٢] : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيءٍ وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ﴾ .

صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون جموع كثرة على وزن فُعْل وهو قياسٌ فى جمع فَعْلاء وأفْعَل الوصفين[٣] .

إنّ الآية الكريمة تنزّل المنافقين الّذين استمرءوا أسلوب الغواية وتنكّبوا طريق الحقّ ، وسدّوا كلّ المنافذ الّتى يمكن أن يتسرّب منها صوت دعوة الحقّ ، ويتسلّل خلالها نور الهداية ، منزلة من ولدوا صمّاً لا يسمعون لأنّ الهدف الأسمى للأذن أن تسمع القول فتتّبع أحسنه ، بكماً لا ينطقون الخير لأنّ الهدف الأسمى للّسان أن يجيد التّعبير عن الحقّ الّذى سمعته الأذن الواعية ، وفقهه القلب الذّكىّ، عمياً فهم لا يبصرون السّبيل أصلاً ، لأنّ الهدف الأسمى للعين أن تميّز بين النّور والظّلمات . إنّ المنافقين لعدم انتفاعهم من نعم الله تعالى عليهم ، وعدم إتاحتهم الفرصة لحواسهم وجوارحهم أن تعمل ما خلقت من أجله ، ولتأصّل هذه الآفات فيهم ، هم كما يقول « قتادة : صمٌّ عن استماع الحقّ بكمٌ عن التّكلّم به . عميٌ عن الإبصار له »[٤]

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ فهم لا يَرْجعون ﴾ وفى ذلك إشعارٌ بأنّ نور الإسلام الّذى أنار لهم طريق الحياة إلى حين والّذى تنكّروا له وهجروه وقد تركوه مصمّمين على ذلك وإلى غير رجعة . إنّهم حينما انصرفوا صرف الله تعالى قلوبهم وأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه جلّ وعلا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم .

---

(١) لسان العرب « بكم »
(٢) الآية ٧٦
(٣) انظر البحر المحيط ١/٧٥
(٤) تفسير القرطبى ص ١٨٦

يقول الطّبرى[١] : « قال أبو جعفر : وقوله فهم لا يرجعون إخبارٌ من الله جلّ ثناؤه عن هؤلاء المنافقين الّذين نعتهم الله باشترائهم الضّلالة بالهدى وصممهم عن سماع الخير والحقّ وبكمهم عن القيل بهما وعماهم عن إبصارهما أنّهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم فآيس المؤمنين من أن يبصر هؤلاء رشداً ، ويقولوا حقّاً ،أو يسمعوا داعياً إلى الهدى أو أن يذّكروا فيتوبوا من ضلالتهم ، كما آيس من توبة قادة كفّار أهل الكتاب والمشركين وأحبارهم الّذين وصفهم بأنّهم قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشّى على أبصارهم » .

قال تعالى : ﴿ صمٌّ بكمٌ عمىٌ فهم لا يرجعون ﴾ .

وإذا كان المثل النّارىّ يتكوّن من آيتين كريمتين كما مرّ بنا ، فإنّ المثل المائىّ يتكوّن هو الآخر من آيتين كريمتين هذه أولاهما .

الآيــة رقــم (١٩)

قال تعالى : ﴿ أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت ، والله محيطٌ بالكافرين ﴾ .

أو هنا للتّفصيل . وكأنّ من نظر فى حالهم ، منهم من يشبّهه بحال المستوقد ومنهم من يشبّهه بحال ذوى صيب[٢] وقيل : أو للتّخيير ، أى مثّلوهم بهذا أو بهذا . لا على الاقتصار على أحد الأمرين[٣] .

والصّيّب المطر . قاله ابن مسعود وابن عبّاس وناسٌ من الصّحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرىّ وقتادة وعطيّة العوفىّ وعطاء الخراسانىّ

(١) تفسير الطبرىّ ١/١١٤ (٢) البحر المحيط ١/٨٥

(٣)تفسير القرطبى ص ١٨٦ وبالنّظر إلى تفسير ابن كثير ١/٥٥ ، ٥٦ يتّضح أنّ كلاًّ من المثلين يمثّل فريقاً من المنافقين .

والسّدّىّ والرّبيع بن أنس[١] وهو فى الأصل صيوب ولكنّ الواو لمّا سبقتها ياء ساكنة صيّرتا جميعاً ياءً مشدّدة كما قيل سيّد مِنْ ساد يسود وجيّد من جاد يجود . وكذلك تفعل العرب بالواو إذا كانت متحرّكة وقبلها ياء ساكنة تصيّرهما جميعاً مشدّدة[٢] أو كصيّب معطوفٌ على قوله : كمثل الّذى استوقد . وحذف مضافان إذ التّقدير : أو كمثل ذوى صيّبٍ نحو قوله تعالى : كالّذى يُغْشى عليه من الموت أى كدوران عين الّذى يُغْشى عليه[٣] ويقول الزّمخشرىّ[٤] : والصيّبّ : المطر الّذى يصوب أى ينزل ويقع .... وتنكير صيّب لأنّه أريد نوعٌ من المطر شديد هائل كما نكّرت النّار فى التّمثيل الأوّل » .

من السّماء . مِنْ لابتداء الغاية[٥] .

والسّماء تذكّر وتؤنّث . وتجمع على أسمية وسماوات وسمىّ[٦] وأصلها الواو لأنّها من السّموّ[٧] والسّماء المعروفة ذات البروج[٨] والسّماء كلّ ما علاك فأظلّك . ومنه قيل لسقف البيت سماء . والسّماء المطر ، سمّى به لنزوله من السّماء . قال حسّان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحسحاس قفرٌ تعفّيها الرّوامس والسّماء

وقال آخر (هو معاوية بن مالك) :

إذا سقط السّماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا

ويسمّى الطّين والكلأ أيضاً سماء . يقال : ما زلنا نطأ السّماء حتّى أتيناكم . يريدون الكلأ والطّين . ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء لعلوّه . قال (هو طفيل الغنوىّ) .

وأحمر كالدّيباج أمّا سماؤه فريّا وأما أرضه فمحول

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٤ وانظر تفسير الطّبرى ١/١١٤ ، ١١٥ وتفسير القرطبىّ ص ١٨٦ والكشّاف ١/١٦٥ والبحر المحيط ١/٨٣ والجلالين وأمثال القرآن لابن القيمّ ص ١٨

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/١١٥

(٣) البحر المحيط ١/٨٤

(٤) الكشّاف ١/١٦٥

(٥) البحر المحيط ١/٨٥

(٦) تفسير القرطبى ١٨٧

(٧) البحر المحيط ١/٨٣

(٨) البحر المحيط ١/٨٣

والسّماء ما علا . والأرض ما سفل[١] ومعروف أنّ الماء إنّما ينزل من السّحاب ، وعليه يكون المراد بالسّماء السّحاب[٢] ويقول الزّمخشريّ[٣] : « فإن قلت : قوله ، من السّماء ، ما الفائدة فى ذكره والصيّب لا يكون إلاّ من السّماء ؟ قلت : الفائدة فيه أنّه جاء بالسّماء معرّفة فنفى أن يتصوّب من سماء ، أىْ مِنْ أُفُقٍ واحدٍ من بين سائر الآفاق ، لأنّ كلّ أفقٍ مِنْ آفاقها سماء ، كما أنّ كلّ طبقةٍ من الطّباق سماء فى قوله : وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها .... والمعنى أنّه غمامٌ مطبقٌ آخذٌ بآفاق السّماء » .

فيه ظلمات . الضّمير فى فيه عائدٌ على الصيّب[٤] وقال ظلمات بالجمع ، إشارةٌ إلى ظلمة اللّيل وظُلمة الدَّجْن وهو الغيم . ومِنْ حيث تتراكب وتتزايد جمعت[٥] .

والرّعد : الصّوت الّذى يُسْمَعُ من السّحاب كأنّ أجرام السّحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الرّيح فتصوّت عند ذلك من الارتعاد[٦] ويقال : أصل الرّعد من الحركة ، ومنه الرّعديد للجبان . وارتعد اضطرب . ومنه الحديث فجىء بهما تُرْعد فرائصهما . الحديث أخرجه أبو داود[٧] .

والبرق أصله من البريق والضّوء . ومنه البراق دابّة ركبها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به وركبها الأنبياء عليهم السّلام قبله[٨] والبرق الّذى يلمع من السّحاب ، مِنْ برق الشّىء بريقاً إذا لمع[٩] إنّه الجرم اللّطيف النورانىّ الّذى يشاهد ولا يثبت[١٠] وقد حاول الزّمخشرىّ أن يبيّن الحكمة من تنكير ظلمات ورعد وبرق يقول[١١] : « وإنما جاءت هذه الأشياء منكّرات لأنّ المراد أنواعٌ منها كأنه قيل فيه : ظلمات داجية . ورعدٌ

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٨٧ (٢) انظر الجلالين .
(٣) الكشّاف ١/١٦٥ وانظر البحر المحيط ١/٨٥
(٤) البحر المحيط ١/٨٦
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٨٧ وانظر البحر المحيط ١/٨٦
(٦) الكشّاف ١/١٦٥ وانظر البحر المحيط ١/٨٣ و ٨٤
(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٨٨ (٨) تفسير القرطبىّ ص ١٨٨
(٩) الكشّاف ١/١٦٦ (١٠) البحر المحيط ١/٨٤
(١١) الكشّاف ١/١٦٦

قاصف . وبرقٌ خاطف » .

يجعلون : الجعل هنا بمعنى الإلقاء والوضع كأنّه قال : يضعون أصابعهم[١] والإصبع مؤنّثة وكذلك الأذن[٢] وفى واحد الأصابع خمس لغات . إصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء . وأُصْبع بفتح الهمزة وكسر الباء . ويقال بفتحهما جميعاً وضمّهما جميعاً وبكسرهما جميعا[٣] وجميع أسماء الأصابع مؤنثة إلاّ الإبهام فإنّ بعض بنى أسد يقولون : هذا إبهام والتّأنيث أجود وعليه العرب غير من ذكر[٤] وأراد بالأصابع بعضها لأنّ الإصبع كلّها لا تجعل فى الأذن إنّما تجعل فيها الأنملة ، لكنّ هذا من الاتّساع وهو إطلاق كلٍّ على بعض ، ولأنّ هؤلاء لفرط ما يهولهم من إزعاج الصّواعق كأنّهم لا يكتفون بالأنملة بل لو أمكنهم السّدّ بالإصبع كلّها لفعلوا[٥] .

من الصّواعق . مِنْ تتعلّق بقوله يجعلون ، وهى سببيّة ، أى من أجل الصّواعق[٦] والصّواعق جمع صاعقة[٧] والصّاعقة قصفة رعد تنقضّ معها شِقّة[٨] من نار قالوا تنقدح من السّحاب إذا اصطكّت أجرامه . وهى نارٌ لطيفةٌ حديدةٌ لا تمرّ بشيءٍ إلاّ أتت عليه ، إلاّ أنّها مع حدّتها سريعة الخمود . يحكى أنّها سقطت على نخلةٍ فأحرقت نحو النّصف ثمّ طفئت . ويقال : صعقته الصّاعقة إذا أهلكته أى مات . إمّا بشدّة الصّوت أو بالإحراق . ومنه قوله تعالى : ﴿ وخرّ موسى صعقاً ﴾[٩] والصّاعقة أيضاً صيحة العذاب . قال الله عزّ وجلّ : فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون[١٠] وبناء

---

(١) البحر المحيط ١٦٦/١ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٨٩

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٨٩ وانظر البحر المحيط ٨٤/١ .

(٤) البحر المحيط ٨٤/١

(٥) البحر المحيط ٨٦/١ وانظر الكشّاف ١٦٧/١ .

(٦) البحر المحيط ٨٦/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ١٨٩ والكشّاف ١٦٧/١ .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٨٩

(٨) الشِّقّة بكسر الشّين . القطعة المشقوقة وما شقّ من ثوبٍ أو نحوه مستطيلا .

(٩) الكشّاف ١٦٧/١ وانظر البحر المحيط ٨٤/١ وتفسير القرطبىّ ص ١٨٩ .

(١٠) تفسير القرطبى ص ١٨٩

الصّاعقة إمّا أن يكون صفةً لقصفة الرّعد أو للرّعد والتّاء مبالغة كما فى الرّواية أو مصدراً كالكاذبة والعافية[١] .

قوله حذر الموت ، حذر وحِذار بمعنىً وقرئ بهما . قال سيبويه هو منصوبٌ لأنّه مفعولٌ له أى مفعولٌ من أجله . وحقيقته أنّه مصدر وأنشد سيبويه :

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره وأُعرِض عـن شتم اللّئيم تكرّمـا[٢]

والموت ضدّ الحياة . وقد مات يموت ويمات أيضاً ... فهو ميّت وميْت وقومٌ موتى وأموات وميّتون وميْتون[٣] .

والإحاطة هنا كناية عن كونه تعالى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط به ، فقيل بالعلم وقيل بالقدرة وقيل بالإهلاك[٤] يقال : أحاط السّلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كلّ جهة . قال الشّاعر :

أحطنا بهم حتّى إذا ما تيقّنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السِلْم

ومنه قوله تعالى : ﴿ وأحيط بثمره .... ﴾ وقيل : محيطٌ بالكافرين أى عالمٌ بهم دليله : وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً . وقيل :مهلكهم وجامعهم دليله قوله تعالى : ﴿ إلاّ أن يحاط بكم ﴾ . أى إلاّ أن تهلكوا جميعاً . وخصّ الكافرين بالذّكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم[٥] والثلاثىّ منه متعدّ قالوا : حاطه يحوطه حوطاً[٦] .

بعد هذه الجولة الواسعة مع معنى ألفاظ الآية الكريمة من الوجهة اللّغوية ، نودّ أن نتحوّل إلى تأمّلها . وإنّ المتأمل لهذه الآية الكريمة يستطيع أن ينظر إليها من زاويتين اثنتين . من زاوية ظاهر المثل . ومن زاوية باطن المثل .

أمّا النّظرة من زاوية ظاهر المثل فإنّها تستطيع أن تتعامل مع أناسٍ هذه هى حقيقة حالهم مع المطر الشّديد الّتى تلك صفته وملابساته . لقد فهمنا من لفظتى صيّب وسماء أنّ الآفاق كلّها ملبّدة بالغيوم . وسبق أن فهمنا من الشّقّ النّارىّ للمثل أنّ اللّيل بهيم

---

(١) الكشّاف ١٦٨/١ (٢) تفسير القرطبى ص ١٩٠

(٣) تفسير القرطبى ص ١٩٠

(٤) البحر المحيط ٨٧/١ وانظر الكشّاف ١٦٨/١

(٥) تفسير القرطبى ص ١٩١ (٦) البحرالمحيط ٨٤/١

والظّلام مطبق ، فلدينا استعداد لأنْ نفهم الوقت ذاته فى حقّ هذ الشّقّ المائىّ للمثل ، ووراء ذلك تنصّ الآية الكريمة على الظّلمة بل على ظلمات ، هكذا فى صيغة التنكير الّتى تفيد هنا التّهويل ، فثمّة اللّيل ، وظلمة كلّ طبقةٍ من طبقات السّحب ، إضافةً إلى الملابسات المخيفة الّتى تضيف إلى رهبة الظلمات رهبة رهيبة .

فما العناصر المرتبطة بالماء المنهمر بشدّة من الدّجْن المطبّق للآفاق وكيف رتّبت هذه العناصر ؟ أمّا هذه العناصر فهى الظّلمات والرّعد والبرق والصّواعق . وأمّا ترتيب هذه العناصر فعجيب ، إنّه يرضى كلّ عقلٍ واعٍ حصيف ، ويشبع كلّ نفس صافيةٍ نقيّة . ونستطيع أن نقول ابتداءً : إنّ هذه العناصر رتّبت وفق كثرتها وشمولها . وليس بخافٍ أنّ الظّلمات هى الأكثر شمولاً . ولا ننسى وراء ذلك شيئين اثنين . أوّلهما ما فهمناه من الشّقّ النّارىّ من كون الوقت ليلاً بهيما طبّقت الظّلمة فيه الآفاق فكانت الحاجة ماسّةً إلى تبديد تلك الظّلمة بإيقاد النّار فكان للعين دورٌ بارزٌ فى ذلك الشّقّ من المثل بشأن إدراك كلٍّ من الظّلمة والنّور النّاجم عن لهيب النّار الموقدة . إنّ للعين ذات الدّور فى هذا الشّقّ الثّانى من المثل الّذى ابتدأ ترتيب العناصر فيه بالظّلمة . وآخر الشّيئين ما هو معروفٌ من كون الظّلمة هى الأصل وكون النّور طارئاً على الظّلمة تالياً لها .

فإذا قارنّا وراء ذلك بين العناصر الثلاثة الباقية ، الرّعد والبرق والصّواعق ، من حيث كثرة الورود والتّردّد ، تبيّنا أنّ الآية الكريمة ترشدنا إلى تلك الكثرة بشأن هذه العناصر الثّلاثة تماماً كما أرشدتنا بشأن الظّلمة . فالمعروف أنّ الرّعد أكثر ارتباطاً بالسّحاب وبالمطر من البرق ، خاصّةً حينما لا يكون الوقت ليلاً ، وحينما لا يكون الشخص مبصراً الفضاء . إنّ الرّعد قادرٌ غالباً على الولوج إلى أعماق الآذان لصوته الجَهْورىّ من ناحية ، ولتكرار وروده غالباً من ناحيةٍ أخرى .

وبالإضافة إلى قلّة نسبة ورود البرق بالقياس إلى الرّعد ، هو لا يبصره إلاّ المبصر لشىءٍ من الفضاء .

ورغم اقتران الصّوت الرّهيب بالضّوء السّاطع فى حقّ الصّاعقة ، فالمعروف أنّها أقلّ العناصر الأربعة ورودًا .

ولعلّنا لاحظنا أنّ هذه العناصر الثلاثة ، الظّلمات والرّعد والبرق ، قد جاءت فى نسق واحد ، لأنّها فى الواقع تكاد تكون لكثرة ورودها المتدرّج متلازمة : ﴿ أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق ﴾ أمّا الصّواعق القليلة الحدوث فى ذاتها ، والّتى يصيب بها الله تعالى من يشاء ، فقد جاءت منفردةً ، تمشّيًا مع قلّة الحدوث من ناحية ، ومِن ناحية أخرى تمييزاً لهذا النوع من الصّواعق المرتبط بعذاب الكافرين فى المقام الأوّل ، عن مقوّمات الصّيّب النّازل من المزن ، من ظلمات ورعد وبرق ، تلك المقوّمات الطّبيعيّة المرتبطة بكلّ مطرٍ غالباً ، سواءٌ أغيث به المؤمنون ، أو عذّب به الكافرون . ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت ﴾ .

وبهذا يتبيّن أنّ النّظرة من زاوية ظاهر هذا المثل المائىّ يتّضح معها أنّنا أمام أناسٍ مكشوفين فى العراء لمطرٍ شديد الانهمار فى ليلةٍ اشتدّت فيها ظلمة اللّيل البهيم وظلمة جبال السُّحب الحاملة لثقيل الماء ، وذلك النّوع من السُّحب يميل لونه أصلاً إلى السّمرة . وقد ارتبط بذلك الماء المنهمر فى تلك الظّلمات المطبقة الدّاجية رعدٌ قاصف مخيف ، وبرقٌ خاطف مهيب ، وصواعق مزعجةٌ رهيبة ، للدّرجة الّتى ظنّ معها القوم أنّ الصّواعق ستصيبهم وتأخذهم وتقضى عليهم ، وهم حذراً من الموت وخوفاً ، لا يكادون يكتفون بوضع أنملتين فى كلّ أذنين دفعاً لأذى الصّوت الصّاعق ، إنّما يكاد الواحد منهم يدخل فى أذنه بدل الأنملة إصبعًا طمعًا منه فى ردّ الصّوت ودرء الأذى ودفع الموت شبه المحقّق ، ولعلّه وراء ذلك يتابع بين أنامل اليد الواحدة فى حقّ الأذن الواحدة .

إنّ هذا الحال الكئيب لهؤلاء النّاس ، والظّرف العصيب الّذى يمرّون به ، والكأس المرّة الّتى يتجرّعونها ، والذّعر الشّديد الّذى تمكّن منهم واستبدّ بهم من الموت شبه الأكيد ، هو بعض ما يصحّ إدراكه من زاوية النّظرة إلى ظاهر المثل المائىّ .

فلنتحول إلى النّظرة الثانية من زاوية باطن المثل .

إنّ أول ما يصادفنا بشأن باطن هذا الشّقّ المائى هو أن لفظة الصّيّب من قوله تعالى : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء ﴾ ــ ومعناه كما عرفنا أو كمثل أصحاب صيّب من السّماء ــ هو أنّ لفظة الصّيّب ، بمعنى المطر الشّديد الانهمار من السّماء ، توحى بأنّ هذا النّوع

من المطر إنّما هو أقرب إلى كونه مطرَعذاب وسوطَ انتقام فى حقّ أولئك الأناس غير الرّاغبين فى المطر وغير المهيّئين والمستعدّين له . إنّ هذا هو حال المنافقين غير الرّاغبين فى هطول قطرات غيث القرآن الكريم ، وانهمار مطره ، وتدفّق مائه ، بعكس حال المؤمنين المتّقين المحبّين لقطرات غيث القرآن الكريم ، الرّاغبين فى ازدياد انهمار مطره وتدفّق مائه وتتابع موجه . إنّ المنافقين المبغضين لقطرات غيث القرآن الكريم ، فكيف بانهمار ماء صيّبه ، بمثابة الأناس المكشوفين فى العراء لأذى ماء السّماء المنهمر ، ولكلّ ما ارتبط بذلك الصّيّب . إنّهم يعتبرونه باختصار ، موتًا محقّقًا فهم يحاولون دفعه بكلّ وسيلة . وفى المقابل هنالك المؤمنون المتّقون الّذين يعتبرون هطول قطرات ماء القرآن الكريم ونزول صيّبه أمراً مصيريّاً بالنّسبة لأرواحهم الّتى تحتاج لغذائها من روح القرآن الكريم حاجة الجسد للطعام والشّراب . وبهذا لا يكتفى المؤمنون المتّقون بالتّرحيب بتلك القطرات ، ولا بالاستعداد لتلقّى ماء القرآن الكريم المنهمر بالحبّ والحبور ، إنّما يتجاوزون كلّ ذلك إلى تنزيل آى الذّكر الحكيم منزلة الغذاء الوحيد لأرواحهم الّتى تجوع هى الأخرى وتعرى تظمأ وتضحى . إنّهم ، بعكس المنافقين ، بمنزلة من لا يصله من ذلك الصّيّب إلاّ كلّ خير ومن ثمّ هم يفرحون بما أنزل منه ويتشوّفون إلى نزول المزيد منه ويتمنّون بل يطلبون صراحةً نزول ذلك المزيد . وقد جاء فى سورة محمّد ﷺ(١) قوله تعالى : ﴿ ويقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمةٌ وذكر فيها القتال رأيت الّذين فى قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت فأولى لهم . طاعةٌ وقولٌ معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم» .

ونحن من جانبنا نودّ ابتداء أن نعطى الشّواهد من القرآن الكريم دليلاً على قول العلماء إنّ المراد بالصّيّب آىُ الذّكر الحكيم الّتى تُنْزِل تباعاً على المصطفى ﷺ فى أسمى طرق الوحى . وإنّ لدينا لأكثر من دليل على ما ذهب إليه العلماء من رأيٍ سديد . ومن هذه الأدلّة كون سورة الفرقان المكيّة الكريمة حينما تتحدّث فى أثنائها عن مجموعةٍ من آيات

---

(١) الآية ٢٠ ، ٢١

الله تعالى الدّالّة على قدرته جلّ وعلا ، من زاوية كونها ماءً ، تتحدّث عن القرآن الكريم من هذه الزّاوية . وبناءً على ذلك ينظر إلى هذه الآيات من هذه الزّاوية بالذّات ، سواءٌ أكانت ماءً للأبدان ، ويأتى الماء العذب الفرات على رأس القائمة ، أم ماءً للأرواح ، ويراد به القرآن الكريم الّذى نزل على الرّسول العظيم ، أم ماءً يخرج من بين الصّلب والتّرائب يتكوّن منه الإنسان . إنّ الآيات الكريمات تجمع بين هذه المظاهر الدّالّة على قدرته جلّ وعلا من زاوية علاقتها بالماء ، وتتحدّث عن معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، أعنى القرآن الكريم ، من زاوية كونه ماءً للأرواح وغذاءً . قال تعالى[1] : ﴿ وهو الّذى أرسل الرّياح بُشْراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السّماء ماءً طهورا . لنحيِي به بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَه مِمّا خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا . ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا . ولو شئنا لبعثنا فى كلّ قريةٍ نذيرا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا . وهو الّذى مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخًا وحِجْراً محجورا . وهو الّذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبًا وصِهْراً ، وكان ربّك قديرا ﴾ فالله سبحانه وتعالى أرسل الرّياح بُشْراً بين يدى رحمته وأنزل من السماء ماءً طهوراً عذباً ليحيى به جلّ وعلا بلدةً ميتاً ويُسقى منه ، ممّا خَلَق ، أنعاماً وأناسىّ كثيرا . والله سبحانه وتعالى صرّف آى الذكر الحكيم بين النّاس ليذكّروا فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا . وتصريف آى الذّكر الحكيم بين النّاس قد عمّقته الآية الكريمة الحادية والأربعون من سورة الإسراء وكذلك الآية التّاسعة والثّمانون . كما عمّقته الآية الكريمة الثالثة عشرة بعد المائة من سورة طه . ولو شاء الله تعالى لبعث فى كلّ قريةٍ نذيراً ولكنّه لم يشأ . إنّما شاء جلّ وعلا أن يبعث أشرفهم وخاتمهم الّذى أيّده بالمعجزة الكبرى غذاء الأرواح وهى القرآن الكريم . ويأمر الله تعالى الرسول العظيم بألا يطيع الكافرين وأن يجاهدهم بالقرآن الكريم جهاداً كبيرا . والله سبحانه وتعالى هو الّذى أرسل البحرين ، العذب الفرات والملح الأجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً فلا يطغى الماء

---

(١) سورة الفرقان ٤٨ ــ ٥٤

الملح الأجاج على العذب الفرات ، ولا يختفى الماء العذب الفرات فى الماء الملح الأجاج ، إنّما يظلّ الماء الملح الأجاج متحيّراً فى مكانه يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ، ويظلّ الماء العذب الفرات مستقراً فى مظانّه وقد يتحرّك وقد يستمرّ فى حركته إلى أن يلتقى الماء العذب الفرات المتحرّك بالماء الملح الأجاج المتحيّر . وفى سكون هذا وحركة هذا صلاح العباد والبلاد بإرادة الله تعالى . والله سبحانه وتعالى خلق من الماء بشراً سويّاً فجعله نسباً من جهة الذّكورة وصهراً من جهة الأنوثة . وكان ربّك قديرا .

وهكذا يتبيّن الحديث عن القرآن الكريم من زاوية كونه ماءً ، ولكنّه ماء الحياة بالنّسبة للأرواح الّتى تتغذّى به[1] .

ومن الأدلّة على هذه الظّاهرة كذلك حديث الآية الكريمة السّابعة عشرة من سورة الرّعد عن إنزال الله تعالى الماء من السّماء وكون الأودية تسيل وفق طاقتها من ذلك الماء . فاحتمل السّيل زبداً رابيا . لقد نزّل العلماء بحقٍّ ، الأودية منزلة القلوب ، وما تسيل به الأودية من ماءٍ وفق طاقتها ، منزلة آى الذّكر الحكيم الّتى تنزل هى الأخرى من السّماء وحياً على غرار نزول قطرات الماء من المزن ، والّتى تختلف طاقات القلوب فى الاتّساع لها وقبولها . كما نزّل العلماء الزّبد الرّابى الّذى يحمله الماء العذب الفرات الّذى يسيل ، منزلة الشّكوك والأباطيل الّتى يثيرها خصوم هذا الدّين . ومن أقوى الأدلّة على صحّة ما ذهب إليه العلماء من كون المراد بالماء النّازل من السّماء آيات الذّكر الحكيم الموحى بها إلى المصطفى ﷺ ، وبالأودية المختلفة قلوب البشر المتفاوتة فى استعدادها لتقبّل آى الذّكر الحكيم ، وبالزّبد الرّابى الّذى يحمله السّيل شكوك الخصوم وأباطيلهم ، ما جاء تعقيبًا على المثل ذى الشّقّين المائى والنّارى من القول : ﴿ كذلك يضرب الله الحقّ والباطل . فأمّا الزّبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ والمعنى أنّ المثل ذا الشّقّين إنّما ضرب من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل ، وأنّ مصير الزّبد أن يطرح جانباً مقذوفاً به ملقى بعيدا ، سواءٌ أكان زبد

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة بإسهاب فى كتابنا : « تأمّلات فى سورة الفرقان » وبالذّات فى الصّفحات ١٢٤ ــ ١٣١ تحت عنوان « القرآن الكريم والرّسول العظيم » .

الماء أم زبد المعادن ، أمّا ما ينفع النّاس فيمكث فى الأرض ، وأنّ ربّ العزّة كما مثّل هذا المثل للإيمان والكفر كذلك يمثّل الأمثال[١] قال تعالى[٢] : ﴿ أنزل من السّماء ماءً فسالت أودية بقَدرها فاحتمل السّيل زبدا رابيا ، وممّا يوقدون عليه فى النّار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مِثْلُه ، كذلك يضرب الله الحقّ والباطل . فأمّا الزّبد فيذهب جُفاءً وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

وإذا كان معنى الصيّب المطر الّذى ينصبّ انصباباً من السّماء ، فقد جاء فى لسان العرب مثلاً[٣] : « الصَّوْب نزول المطر . صاب المطر صوباً وانصاب ، كلاهما انصبّ . ومطرٌ صوبٌ وصيّبٌ وصَيُّوب .... وكلُّ نازلٍ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ ، فقد صاب يصوب .... وصاب الماءَ وصوّبه : صبّه وأراقه » وكان المراد بالصيّب هنا نزول الوحى على المصطفى ﷺ ، ففى استعمال لفظة الصيّب بالذات وليس لفظة الغيث مثلاً مراعاةٌ للّذين يعنيهم الحديث فى المقام الأوّل الّذين يبغضون نزول الوحى وهم المنافقون الّذين يعتبرون نزول أىّ قدرٍ من القرآن الكريم قدراً كبيراً وفى حقّهم عذاباً أليما . وبهذا يتبيّن أنّ فى مجىء القول « من السّماء » تعميقاً لإحساس المنافقين العميق بكون الوحى النّازل من السّماء عقاباً أليماً ، خاصّةً وقد عرفنا أنّ فى ذكر لفظ السّماء فى الآية وعدم الاستغناء عنه إشعاراً بأنّ الصيّب النّازل من السّحاب فى هيئة عذابٍ من ربّ العالمين للمنافقين قد غطّى كلَّ آفاق السّماء .

وانظر إلى تتابع متعلّقات هذا النّوع من المطر وتلاحقها من ظلمات ورعد وبرق وصواعق هى فى ذلك المطر الصيّب بل فى أعماقه : ﴿ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت ﴾ .

وإذا كان الصيّب بمعنى آى الذّكر الحكيم الّتى تنزل هى الأخرى من السّماء على المصطفى ﷺ ، فما المراد بالظّلمات فى ضوءِ المعرفة بكون المنافقين هم الّذين يعنيهم

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة بإسهاب فى كتابنا : « تأمّلات فى سورة الرّعد » فى الصّفحات ١٢٣ — ١٣٢

(٢) سورة الرّعد ١٧ (٣) « صوب » .

الحديث فى المقام الأوّل ؟ المراد بالظّلمات شكوك المنافقين وريبهم وأباطيلهم وترّهاتهم . لقد عرفنا من المثلين المائىّ والنّارىّ فى آية سورة الرّعد أنّ كلاً من الماء والمعدن ، وهما اللّبّ والجوهر ، يحملان الزّبد والقذى . والعجيب فى أمر زبد الماء والمعدن وقذاهما أنّ سكونهما وحركتهما تبعٌ لسكون الماء والمعدن وحركتهما . وأىّ ماء ومعدن ؟ إنّهما العذب والجوهر ! والعجيب فى أمر الزّبد والقذى أنّ ازدياد حركتهما ونشاطهما وليد ازدياد حركة الماء والمعدن ونشاطهما . والعجيب فى أمر الزّبد والقذى أنّهما يحملهما إلى حين كلٌّ من خالص الماء ولبّ المعدن على ظهر كلٍّ منهما ، ولكنّ مصير كلٍّ من الزّبد والقذى أن يذهبا جفاء . ومتى ؟ بعد صراعٍ مرير من قبل الحقّ لهما وربّما انتصرا على الحقّ فى إحدى الجولات أو بعضها .

إنّ هذه الملابسات مفيدةٌ لنا بشأن فهم أبعاد لفظة « ظلمات » الّتى جاءت منكّرة . إنّها ظلمات مطبقة ، بمعنى أنّها شكوك للمنافقين وريب وأباطيل وترّهات لا أول لها ولا آخر . والعجيب فى أمر هذه الظّلمات ، بالمعنى الّذى عرفنا ، أنّها لا تزداد بازدياد هطول آى الذّكر الحكيم إلاّ إطباقاً وثباتا .

وكما كانت الظّلمات بأنواعها ، بسبب اللّيل البهيم وطبقات السّحب الدّاكنة بطبعها لامتلائها بالماء ، من متعلقات ذلك النّوع من المطر المنهمر ، فقد كانت الرّعود وكذلك الصّواعق من متعلّقات ذلك الصّيّب . فما المراد بالرّعد فى الآية الكريمة بعد أن عرفنا أنّ المراد بالصيّب آى الذّكر الحكيم وبالظّلمات شكوك المنافقين وريبهم ؟ إنّا حينما نتدبّر مثل قوله تعالى عن المنافقين فى السّورة الّتى تحمل اسمهم[1] : ﴿ يحسبون كلّ صيحةٍ عليهم ﴾ نتبيّن أنّ أىّ صوتٍ يرتفع فى صفّ المسلمين ، فى أىّ ميدانٍ من الميادين ، يظنُّ المنافقون أنّهم هم المعنيّون وحدهم وأنه يخصّهم دون سواهم ، وما ذلك إلاّ بسبب القلق النّفسىّ المستبدّ بهم والاضطراب المعنوىّ المتمكّن منهم والخوف العميق المسيطر عليهم . إنّ هؤلاء المنافقين بسبب اعتقادهم الجازم بأنّهم كلّ لحظة من اللحظات يمكن أن

---

(١) سورة المنافقون ٤

يكونوا غرضاً للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ الّذين يعلمون أنّهم يخادعونهم ولكنّ الله خادعهم ، بعد أن يغرى الله تعالى المؤمنين بالمنافقين ، وقد قال تعالى[١] : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والّذين فى قلوبهم مرضٌ والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا ﴾ لذا هم كلّهم حذرٌ أن تنزل على المصطفى ﷺ سورة تفضحهم وقد جاء فى سورة التّوبة[٢]الفاضحة للمنافقين قوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبّئهم بما فى قلوبهم . قل استهزئوا إنّ الله مُخْرِجٌ ما تَحْذرون﴾ إنّ المنافقين بسبب ذلك الاعتقاد الجازم وبسبب تبرّمهم بكلّ تعاليم الإسلام وتكاليفه وهم الحريصون على ما ينفعهم مادّياً فحسب بادّعائهم الإسلام ، تنزل عليهم قوارع زواجر القرآن الكريم منزلة الرّعد ، لأنّها مزعجةٌ من الأعماق لنفوسهم القلقة المضطربة الخانعة ، ولقلوبهم الحذرة الخائفة الوجلة . إنّهم بسبب نزول آيات الإنذار فى القرآن الكريم والتّهديد والوعيد بمنزلة من أحاطت به فى العراء السّماء بصيّبها ، فى تلك اللّيلة الّتى تكاثفت ظلماتها وتكاثفت ، وتتابعت قواصف رعودها وتوالت .

وما المراد بالبرق ؟ بالنّظر إلى الآية الكريمة التّالية نستطيع أن نفهم أنّ البرق ، والمراد به النّور اللاّمع المنبعث من خلال السّحاب ، عبارةٌ عن نور تعاليم آيات القرآن الكريم . والمعروف أنّ القرآن الكريم بمثابة النّور الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم وقد قال تعالى[٣] : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيرا . وأنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولٰكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم . صراطِ الله الّذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾

---

(١) سورة الأحزاب ٦٠ ، ٦١
(٢) الآية ٦٤
(٣) سورة الإسراء ٩ ، ١٠
(٤) سورة الشّورى ٥٢ ، ٥٣
(٥) سورة النّساء ١٧٤

وقال تعالى[١] : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين . يَهْدى به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

إنّ المنافقين لم يستفيدوا من نور تعاليم الإسلام الّذى تظاهروا به واستفادوا من النّاحية المادّية فقط بأن أمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم إضافةً إلى بعض المتاع الزّائل الّذى ظفروا به كالمشاركة فى الغنائم والفئ . إنّهم يرون نور الإسلام من القوّة للدّرجة الّتى تكاد تخطف أبصارهم على غرار فعل البرق كما سنتبيّن إن شاء الله تعالى بشأن الآية الكريمة التّالية . إنّ نفوسهم المظلمة ترفض التّجاوب مع آى الذّكر الحكيم فى أىّ صورةٍ من الصّور . وكثيرٌ هى الآيات الكريمات الّتى صوّرت نفسيّات هؤلاء المنافقين ومن لفّ لفّهم على حقيقتها وذلك بسدّ كلّ المنافذ الّتى يمكن أن يتسلّل منها الهداية وصوت الحقّ . وقد زادهم الله تعالى عمىً إلى عمى القلوب والبصائر وصمماً إلى صمم الآذان . ومن ذلك قوله تعالى[٢] : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميّاً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمىّ وعربىّ . قل هو للّذين آمنوا هدًى وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً ، أولئك ينادون من مكانٍ بعيد ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تغلبون . فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الّذى كانوا يعملون ﴾ . وقوله تعالى[٤] : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ ممّا تدعونا إليه وفى آذننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعمل إنّنا عاملون ﴾ وقوله تعالى[٥] : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربّك فى القرآن وَحْدَه ولّوْا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول

---

(١) سورة المائدة ١٥ ، ١٦
(٢) سورة فصّلت ٤٤
(٣) سورة فصلت ٢٦ — ٢٧
(٤) سورة فصّلت ٥
(٥) سورة الإسراء ٤٥ — ٤٨

الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » . وقوله تعالى[١] : ﴿ ومن أظلم ممّن ذُكّر بآيات ربّه فأعرض عنها ونسى ما قدّمت يداه . إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تُسْمِع الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تَهْدى العُمْى ولو كانوا لا يبصرون . إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً ولكنّ النّاس أنفسهم يظلمون ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ ومنهم مَنْ يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإن يَرَوْا كلّ آيةٍ لا يؤمنوا بها حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقول الّذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ ومن أعجب أحوال المنافقين أنّهم لا يفهمون ما يجرى على لسان المصطفى ﷺ من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرةٍ مبيّنةٍ للقرآن الكريم . قال تعالى[٤] : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾ ومن المعروف أنّ المنافقين أخوانُ كلٍّ من المشركين واليهود . ومن الأدلّة على ذلك الآية الكريمة الّتى مرّت بنا من سورة محمّد ﷺ الّتى تجعل المنافقين جزءًا لا يتجزّأ من كفّار مكّة ، والآية الكريمة الحادية عشرة من سورة الحشر الّتى تجعل الّذين نافقوا إخواناً للّذين كفروا من أهل الكتاب . ومن المعروف كذلك أنّ المنافقين موافقون للكافرين فى الآراء ، ولكنّ المنافقين يكتمون ما يعلنه الكافرون ، ويعلنون الإسلام الّذين لا يهتدون بهديه بل الّذين تتأذّى نفوسهم المريضة بتعاليمه على غرار تأذّى أعينهم من نور البرق الّذى كان ينبغى عليهم أن يمشوا فيه وأن يستمروا فى المشى حتّى يصلوا إلى الغاية الحميدة الّتى هى غاية المنى ومنتهى الطّلب ، إلى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء فى الحديث الصّحيح عن المصطفى ﷺ[٥] ولكن ما العمل لمرضى القلوب والعقول

---

(١) سورة الكهف ٥٧ (٢) سورة يونس ٢٢ — ٤٤

(٣) سورة الأنعام ٢٥ (٤) سورة محمّد ١٦

(٥) انظر صحيح البخارى ٦/١٤٥ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ الآية ١٧ من سورة السّجدة .

والعيون وقد قيل[١] .

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجد مُرّاً به الماء الزُّلالا

وإذا كان أصحاب الصّيّب يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت وليس أناملهم ، فإنّ المنافقين يعملون شيئاً كهذا . فما المراد بالصّواعق إذن ؟ من المعروف فى عالم الطّبيعة أنّ الصّواعق من جنس الرّعد ولكنهّا أشدّ صوتاً وسرعة ، هذا بالإضافة إلى اقتران الضّوء الشّديد بها والإحراق . وبناءً على ذلك يشترك الرّعد والصّاعقة فى الصّوت ولكنّ صوت الصّاعقة هو الأشدّ . وتنفرد الصّاعقة بالنّار والنّور . وإنّ حديث هذه الآية الكريمة عن الصّاعقة من زاوية الصّوت المجلجل المزلزل . وإنّ حديث الآية الكريمة التّالية عن البرق الّذى يرتبط بالصّاعقة والّذى ينفرد عنها . ويظلّ الخوف من الموت ملازماً للصّاعقة بصوتها وبضوء برقها المفهوم ضمناً وهذا الخوف نصّت عليه الآية الّتى نحن بصددها فما معنى قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت ﴾ ؟

فى ضوء معرفة العلاقة بين الرّعد والصّاعقة من زاوية الصّوت بخاصّة ، وكون الصّوت فى حقّ الصّاعقة أشدّ إزعاجاً وزلزلة ، وفى ضوء معرفة الرّعد فى حقّ المنافقين وكونه قوارع زواجر القرآن الكريم وتهديده ووعيده ، وبغض المنافقين للقرآن الكريم جملةً وتفصيلاً ، خاصةً حينما تكون ثمّة مسئوليّة عليهم وتكاليف منوطة بهم وأوامر ونواهٍ ينبغى الالتزام بها ، فإنّ فى الإمكان أن نذهب إلى كون الصّواعق فى حقّ المنافقين من جنس مقوّمات الرّعد بالمعنى الّذى عرفنا فى حقّهم ، وذلك بأن تتابع الأوامر والنّواهى والتّكاليف فى حقّهم ، وتشتدّ قوارع الزّواجر المتتالية ، ويكون التهديد المباشر لهم ، والكشف عن عوراتهم ، والفضح لسوءاتهم ، والتّحذير الصّريح لهم بالجلاء أو القتل فى هذه الحياة الدّنيا إن استمرّوا على نفاقهم وبالدّرك الأسفل من النّار فى الحياة الأخرى ، والأوامر الصّارمة لهم بتطبيق تعاليم الإسلام كلّها والجهاد فى سبيل الله تعالى بالأنفس والأموال وعمل كلّ صالحٍ من أجل الإسلام الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

---

(١) التّبيان فى شرح ديوان أبى الطّيّب المتنبّى للعُكبَرى ٢٢٨/٣

إنّ المنافقين إنّما يريدون بإعلان الإسلام وإخفاء الكفر الحياة الهيّنة اللّيّنة الّتى تضمن لهم الكسب الدّنيوىّ المستمرّ من الجانبين ولا يريدون أىّ خيرٍ للإسلام والمسلمين . إنّهم لا يقومون اختياراً بأىّ عملٍ فيه الصّلاح للإسلام والمسلمين لأنّهم منافقون وكفى . فإذا ما أرغموا بسبب انتمائهم إلى الجماعة المسلمة ظاهراً على أن يقوموا بأدْنى عملٍ إيجابىّ للإسلام والمسلمين ظهروا على حقيقتهم بحيث إنّ عدمهم خيرٌ من وجودهم . وإنّ هذه الحقيقة نستطيع أن نفهمها من مثل قوله تعالى[١] : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم . والله عليمٌ بالظّالمين ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا . وإذ قالت طائفةٌمنهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريقٌ منهم النّبىّ يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فِرارا . ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولوْن الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتّعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوّقين منك والقائلين لإخوانهم هَلُمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا ﴾ والمعروف أنّ سورتى التّوبة والأحزاب من أكثر سور القرآن الكريم حديثاً عن المنافقين هذا إلى كون إحدى سور القرآن الكريم تحمل اسمهم « المنافقون » .

إن صوارم أوامر القرآن الكريم وقوارع زواجره تنزل على المنافقين منزلة الصّواعق : وإذا كان الّذين فى العراء يضعون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت ، فإنّ المنافقين الّذين يعتبرون خروجهم من ظلمات الكفر ودخولهم فى نور الإسلام موتاً وهم الّذين أعمى الله تعالى قلوبهم وبصائرهم ، فى حكم من يضع أصابعه فى أذنيه كى يحول بين آى الذّكر الحكيم وبين أن تقرع مسمعيه ، وتقنع عقله وفكره ،

---

(١) سورة التّوبة ٤٧

(٢) سورة الأحزاب ١٣ — ١٨

وتستقرّ فى قلبه . إنّ المنافقين يعتبرون الإسلام موتاً فهم يحذرونه حذر الصّواعق بوضع الأصابع فى الآذان دليلاً على الحرص الشّديد على الكفر الّذى يعتبرونه الحياة .

إن المنافقين الّذين يفهمون الحقائق فهماً معكوساً فيعتبرون الإيمان كفراً والحياة موتاً يصحّ فيهم قوله تعالى من سورة الأنعام[١] : ﴿ أَوَمَنْ كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النّاس كمن مثله فى الظّلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ فهؤلاء المنافقون سعداء بالظّلمات غير راغبين فى الخروج منها لأنّهم يرونها نوراً وحياة بسبب عمى قلوبهم وبصائرهم . ويصحّ فيهم قولُه تعالى من سورة يس[٢] : ﴿ وما علّمناه الشّعر وما ينبغى له إن هو إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين . لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين ﴾ إنّ المنافقين المبطنين للكفر بنصّ الآيتين الكريمتين بمنزلة الأموات سكّان القبور . لأنّهم لم يحقّقوا الهدف الّذى خلقوا من أجله بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وبمنزلة المحبّين للظّلمات غير الرّاغبين فى الخروج منها إلى النّور الحقيقى ، نور الإسلام الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده لأنّهم عمى القلوب والبصائر والعياذ بالله . إنّهم من أجل الموت والعمى يجعلون أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا آى الذّكر الحكيم . وإنّ التّعبير عن إعراضهم عن دعوة الحقّ بوضع أصابعهم فى آذانهم رمزٌ لكلّ مظاهر الإعراض عن الإسلام والإقبال على الكفر .

إنّ المكشوفين فى العراء للصّيّب لن يدفع عنهم وضع أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق الموت إن أراد الله تعالى أن يصيبهم بتلك الصّواعق أو أن يأخذهم بسواها . وإنّ المنافقين الحريصين على متع هذه الحياة الدّنيا الرّخيصة الزّائلة ، لهذا هم يعلنون الإسلام ويبطنون الكفر كى ينتفعوا من الفريقين وكى يأمنوا الأذى من الجانبين ، لن يحول وضعهم أصابعهم فى آذانهم كيلا يصل إليهم صوت دعوة الحقّ ممثّلةً فى آى الذّكر الحكيم أساساً وفى غير آى الذّكر الحكيم ، بين عذاب الله تعالى الأليم الشّديد فى الآخرة وقد يضاف إليه عذاب الدّنيا من التّقتيل والتّشريد والتّعذيب ، وبين وصول هذا العذاب إليهم إن

---

(١) الآية ١٢٢ (٢) الآية ٦٩، ٧٠

شاء الله تعالى أن يصلهم . وقد عبّر عن هذا المعنى فى التّذييل . قال تعالى : ﴿ والله محيطٌ بالكافرين ﴾ فهؤلاء المنافقون حينما يقفون كلَّ هذه المواقف السّيّئة من القرآن الكريم ومن الرّسول العظيم ومن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، هل يظنّون أنّهم يفوتون الله تعالى ؟ هل يظنّون أنّهم يخادعون الله تعالى وهو خادعهم ؟ ليعلم هؤلاء المنافقون وأمثالهم أنّهم لا يفوتون الله تعالى وأنّ الإمهال من الله تعالى كى يتدبّروا الأمر سريعاً ويعودوا إلى جادّة الصّواب فوراً ، فحذار أن يظنّوا الإمهال إهمالاً ، وحذار أن يظنّوا أنّ ما حاولوا إخفاءه عن البشر أو أخفوه يمكن لهم أن يقوموا بشيءٍ منه فى جنب الله تعالى الّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو جلّ وعلا أقرب إليه من حبل الوريد . على هؤلاء المنافقين أن يعلموا أنّ الله تعالى محيطٌ بهم علماً وقدرة ، وأنّهم لا يفوتونه جلّ وعلا ، وأنّ عليهم أن يستفيدوا من فرصة الإمهال هذه كى يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وأن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات . فالإسلام يجبّ ما قبله ، والله سبحانه وتعالى هو التّوّاب الرّحيم . إنّهم إن لم يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا تائبين طائعين كان العذاب الأليم حظّاً لهم ونصيباً فى الأولى والآخرة . قال تعالى : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت والله محيطٌ بالكافرين ﴾[1] .

وإنّ ممّا يأخذ بسببٍ من معنى الآية الكريمة فى تصويرها لموقف المنافقين من القرآن الكريم قوله تعالى فى سورة الأنعام[2] : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد فى السّماء ، كذلك يجعل الله الرّجس على الّذين لا يؤمنون ﴾ وقوله تعالى فى سورة الزُّمر[3] : ﴿ وإذا ذُكِر الله وحده اشمأزّت قلوبُ الّذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الّذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾

---

(١) من الّذين تحدّثوا فأحسنوا الحديث فى معنى الآية الكريمة القرطبىّ فى تفسيره ص ١٩٠ والجلالين والزّمخشرىّ فى الكشّاف ١٦٠/١ وابن القيّم فى أمثال القرآن ص ١٨ وأبو حيّان فى البحر المحيط ٨٧/١ والطّبرىّ فى تفسيره ١٢١/١ ، ١٢٢

(٢) الآية ١٢٥ (٣) الآية ٤٥

وقوله تعالى فى سورة الزّمر كذلك[١] : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلالٍ مبين . الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ ونتحوّل إلى الآية التّالية الّتى يكمل بها المثل المائّى .

الآيــة رقــم (٢٠)

قال تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

يكاد مضارع كاد الّتى هى من أفعال المقاربة ، ووزنها فعل يفعل نحو خاف يخاف منقلبة عن واو[٢] فمعنى يكاد يقارب . يقال . كاد يفعل كذا إذا قارب و لم يفعل . ويجوز فى غير القرآن يكاد أن يفعل ..... والأجود أن تكون بغير أن لأنّها لمقاربة الحال ، وأن تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متنافٍ . قال الله عز وجلّ : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[٣] وليس من أفعال المقاربة ما يستعمل منها مضارعٌ إلاّ كاد وأوشك . وهذه الأفعال من باب كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، إلاّ أنّ خبرها لا يكون إلاّ مضارعاً[٤] .

والألف واللاّم فى البرق للعهد إذ جرى ذكره نكرةً فى قوله : فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق ، فصار نظير : لقيت رجلاً فضربت الرّجل . وقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرّسول[٥] والبرق هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضّرب

---

(١) الآية ٢٢ ، ٢٣
(٢) البحر المحيط ٨٨/١
(٣) تفسير القرطبى ص ١٩١
(٤) البحر المحيط ٨٨/١
(٥) البحر المحيط ٨٩/١

من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الإيمان[١] ويقول الطّبرى[٢] : « يعنى بالبرق الإقرار الّذى أظهروه بألسنتهم بالله وبرسوله وما جاء به من عند ربّهم ، فجعل البرق له مثلاً على ما قدّمنا صفته . يخطف أبصارهم يعنى يذهب بها ويستلبها ويلتمعها من شدّة ضيائه ونور شعاعه » .

والخطف : الأخذ بسرعة ومنه سمّى الطّير خطّافاً لسرعته[٣] ويخطف بفتح الطّاء ويخطف بكسر الطّاء لغتان قرئ بهما . وقد خطفه بالكسر يخطفه بفتح الطّاء خطفاً . وهى اللّغة الجيّدة[٤] والكسر فى طاء الماضى والفتح فى المضارع لغة قريش وهى أفصح وأعلى[٥] .

أبصارهم جمع بصر ، وهى حاسّة الرّؤية . والمعنى تكاد حجج القرآن وبراهينه السّاطعة تبهرهم[٦] أى لشدّته وقوّته فى نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان[٧] .

كلّ للعموم ، ،وهواسم جمع لازم للإضافة إلاّ أنّ ما أضيف إليه يجوز حذفه ويعوّض منه التّنوين[٨] والأصل فيها أن تتبع توكيداً كأجمع[٩] وكلّ منصوبٌ على الظّرف . وسَرَت إليه الظّرفيّة مِنْ إضافته لما المصدريّة الظّرفيّة لإنّك إذا قلت : ما صحبتنى أكرمتك فالمعنى مدّة صحبتك لى أكرمك . وغالب ما توصل به ما هذه بالفعل الماضى . وما الظّرفيّة يراد بها العموم . فإذا قلت : أصحبك ما ذرّ لله شارق فإنّما تريد العموم . فكلّ هذه أكّدت العموم الّذى أفادته ما الظّرفيّة [١٠] وما أضاء فى موضع خفضٍ بالإضافة إذ

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٥ (٢) تفسير الطبرى ١/١٢٣

(٣) تفسير القرطبى ص ١٩٢ والجلالين والكشّاف ١/١٦٨ والبحر المحيط ١/٨٨ وتفسير الطبرى ١/١٢٣ (٤) انظر تفسير القرطبى ١/١٩٢

(٥) انظر البحر المحيط ١/٨٩ والكشّاف ١/١٦٨

(٦) تفسير القرطبىّ ص ١٩٢ وانظر البحر المحيط ١/٩٠

(٧) تفسير ابن كثير ١/٥٥ (٨) البحر المحيط ١/٨٨

(٩) البحر المحيط ١/٨٨ (١٠) البحر المحيط ١/٩٠

التّقدير كلّ إضاءة . وهو على حذف مضافٍ أيضاً معناه كلّ وقت إضاءة ، فقام المصدر مقام الظّرف ، كما قالوا : جئتك خفوق النجم ، والعامل فى كلّما : مشوا فيه[١] .

ويقول الزّمخشرى[٢] : « كلّما أضاء لهم استئنافٌ ثالث . كأنّه جوابٌ لمن يقول : كيف يصنعون فى تارتى خفوق البرق وخفيته . وهذا تمثيلٌ لشدّة الأمر على المنافقين بشدّته على أصحاب الصيّب ، وما هم فيه من غاية التّحيّر والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطواتٍ يسيرة . فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيّدين عن الحركة » ويقول الزّمخشرىّ[٣] كذلك مقارناً بين كلّما وإذا : « فإن قلت : كيف قيل مع الإضاءة كلّما ومع الإظلام إذا قلت : لأنّهم حراصٌ على وجود ما همّهم به معقود من إمكان المشى وتأتّيه . فكلّما صادفوا منه فرصةً انتهزوها وليس كذلك التّوقّف والتّحبّس » .

وأضاء إمّا متعدٍّ بمعنى كلّما نوّر لهم ممشًى ومسلكاً أخذوه والمفعول محذوف ، وإمّا غير متعدٍّ بمعنى كلّما لمع لهم مشوا فيه[٤] وأضاء عند المبرّد هنا متعدّ . التّقدير كلّما أضاء لهم البرق الطّريق . فيحتمل على هذا أن يكون الضّمير فى فيه عائداً على المفعول المحذوف . ويحتمل أن يعود على البرق ، أى مشوا فى نوره ومطرح لمعانه . ويتعيّن عوده على البرق فيمن جعل أضاء لازما . أى كلّما لمع البرق مشوْا فى نوره[٥] ونحن أشدّ ميلاً إلى كون أضاء لازماً . و « عن ابن عبّاس : كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، أى يعرفون الحقّ ويتكلّمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أى متحيّرين . وهكذا قال أبو العالية والحسن البصرىّ وقتادة والرّبيع بن أنس والسّدّىّ بسنده عن الصّحابة وهو أصحّ وأظهر والله أعلم »[٦] .

والمشى جنس الحركة المخصوصة ، فإذا اشتدّ فهو سعى ، فإذا ازداد فهو

---

(١) البحر المحيط ١/٩٠ (٢) الكشّاف ١/١٦٩

(٣) الكشّاف ١/١٦٩

(٤) انظر الكشّاف ١/١٦٩ وتفسير القرطبىّ ص ١٩٣

(٥) البحر المحيط ١/٩٠ (٦) تفسير ابن كثير ١/٥٥